التأملات الحياتية والتحريفات البشرية

عبر الأدلة القرآنية

اســـم الكتـــاب: التـــأملات الحياتيـــة والتحريفـــات البشـــرية عبـــر الأدلـــة القرآنيـــة

التـأليـــــــــف: ســـــامي ســـــلام القـــــراش

مراجعة وإخراج فني: عمـــــرو ســـــالم ســـــواح

رقـــم الإيـــداع: ٢٣٨٤٥ /٢٠١٩

التـــرقيم الـــدولي: 978-977-835-159-0

الناشـــــــــــر: دار زحمة كُتّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر

Facebook

Email za7ma-kotab@hotmail.com

Tel 002 01205100596

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

التأملات الحياتية والتحريفات البشرية

عبر الأدلة القرآنية

تأليف

سامي سلام القراش

مُقَدِّمَة

لستَ مطالبًا بأن تكون عالمًا أو فقيهًا أو شيخًا لكي تتأمل حياتك وتغوص بين ثنايا ملكوت السماوات والأرض بعقلية ناضجة وبذهن متوقد صافٍ؛ فإن الكون مليء بآيات قادرة على تغيير فكرك وإعادة النظر لترغبك في التأمل فيما يخص كل ما كنت تفعله في الحياة.

تلك النعمة التي حرص عليها الرسل والأنبياء من قبل البعثة النبوية المطهرة. التي غفل عنها كثير من الناس من بني البشر. ربما نسوها. أو ربما لم يرزح يومًا بعد تحت وطأة نعمة تأمل الحياة.

قد يبدو لنا أحيانا لوقت قصير أن لا أحد يعي حقًّا أثر هذه النعمة العظيمة على النفس البشرية.

لا يدركها ولا يعرف قيمتها إلا من ذاقها وأحس بها وعاش معها.

كما أنها لذة لا يستشعر آثارها إلا من ذاق طعمها وأنس بقربها.

ينتابنا الجزع من آلام وخوف بأن رحلتنا في هذه الحياة قصيرة والخاسر فيها هو من خاض هذه الرحلة وعاشها دون أن يعلم الغاية منها..

نبذة

تحتوي مادة هذا الكتاب على تأملات حول الحياة البشرية للعقول الإنسان وخواطر طرقت على باب ذهن عقل مسلم قارئ لا هو عالم ولا هو فقيه، وإنما هي دروس مبسطة يعلمها ويدركها الجميع سواء كان عالمًا أو جاهلًا. ذاكرا أو ناسيًا. وإنما أردت استيقاظ العقل وتنشيط الذاكرة ليدرك بني البشر أنهم قادرون على استنباط الحقائق التي بين أيديهم والوصول إليها لتثبيت عقيدتهم في أنفسهم دون الحاجة إلى الرجوع للمساعدة. فكل ما عليك فعله هو الاطلاع للحظات فقط من خلال تأملات حياتية وتحريفات بشرية بالأدلة القرآنية.

تمهيد

الباب الأول

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ووضع له منهجًا دستوريًّا يسير عليه مطمئنا. وطريقا ممهدا بالسلام والتقوى. ثم أوجد جميع الحقوق والواجبات العامة على جانبي الطريق. وعلامات إرشادية تحذيرية من أجل تنبيهه عندما يخطئ أو ينحرف عن مساره الصحيح. كما أنشأ له محطات صيانة متفرقة على الطريق الصحيح بها طرق إصلاح ما أفسد كي يواصل للنهاية المطاف بسلام وأمان.

فضل الله الإنسان وكرمه على سائر المخلوقات وجهزه لأجل تلك المهمة بالعقل.

قال ﷻ:

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠]

جهزه لأجل هذه المهمة بالعقل لتدبر آيات الله في السماوات والأرض مصداقا لقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى

خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]

خلق الله آدم عليه السلام عليه السلام وعلمه الأسماء كلها.

قال جل وعلا: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [البقرة: ٣١] .

ذكر أهل التفسير رواية مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم من السلف عن ابن عباس أنه قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس. إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم، علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء. علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها..

فجميعها أسماء خلقها الله سبحانه وتعالى لحكمة ثم علمها آدم عليه السلام للبشرية.

ومن ثمّ أتى الإنسان على مر العصور القديمة والحديثة وعلى مر التاريخ فدخل فيما لا يعنيه. بمثابة عقلية فاسدة تعكس حالة من التخلف السلوكي وشرع في تصنيف تلك الأسماء على هواه فقام بتخصيص أسماء منها تتخذ على أساسها شتائم تقذف بها والبعض يستخدم في المدح. فهي من الموروثات القديمة فرعونية كانت أو قبطية أو يونانية. توارثها الأجيال واستحدثها جيل بعد جيل لتتخذ الألفاظ شتائم وسبابا بذيئا.

ولم يسلم منه أسماء الحيوانات مثل الكلب والحمار اللذين استحوذا على النصيب الأكبر.

تلك الأسماء ليست أسماء لسباب أو قبيحة فقد وردت في أماكن متعددة بالقرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] .

قال العلماء: في هذه الآية تشبيه لمن ترك العمل بكتاب الله وآياته التي آتاها إياه وأعرض عن مواعظ الله بالكلب الذي لا يزال لاهثا في كل حال. إن كان رابضًا لهث وإن طرد لهث.

جاء ذلك الإنسان وصنف ذلك الاسم على هواه واستخدمه أداة لألفاظ نابية قصد منها التحقير والإهانة.

حينما نقول لشخص أنت كلب يرد عليك غاضبا. فإذا تأملنا قليلًا لتبين لنا أن اسم الكلب لا يرتبط بأي صلة بالوقاحة. بل في الأصل هو أول حيوان استأنسه الإنسان وتولدت بينهما صداقة لما يتمتع به الكلب من صفاته الظاهرة كالوفاء ولكن تدخل الإنسان وأفسد الأسماء ولم يتركها كما هي. فخاض وصنع وصنف كما يشاء.

فإن كان من المفترض أن حفرت في ذاكرتنا وغزت خيالنا تلك الأسماء بهذا الوصف أننا لو تأملنا بخيال فسيح المدى إذا كان الإنسان بإمكانه تحويل هذه الأسماء من شتائم إلى ثناء أو تركها دون تحريف فيها، لتغير إدراكنا للواقع أو تغيرت نظرتنا للنقيض وتحولت الأشياء السيئة إلى أشياء حميدة. لكان شبه الصديق الوفي بالكلب نظرًا لوفائه.

فإذا أردنا أن نمدح ونصف إنسانا نرى فيه الوفاء والإخلاص نقول له أنت إنسان (وفيّ) مثل الكلب، يبدو أنه قد رسمت على شفتيك ابتسامة. فهذا يعني حقًّا أثر نجاحي في توصيل ما أردت. أو ربما أدركت ما أريد الوصول إليه. أن هذه الصفات التي رسخت في أذهاننا بهذا الشكل بأسماء نقذف بها والمراد بها الإهانة ما هي إلا بفعل الإنسان الذي حرفها وصنفها على هواه وصارت على هذا النحو على مر العصور وتوارثتها الأجيال واتخذت شتائم.

كما أنه هو نفس الإنسان الذي صنف وأطلق على اسم الغزال وصفا حسيا واعتبره مركز الجمال والأناقة ثم شبه به المرأة للتغزل بجمالها.

كما وصف الشجاع بالأسد.

هكذا خاض الإنسان في الأسماء والتسميات بعناية فائقة فأفسد كل شيء من مظاهر الجمال الطبيعي الذي خلق عليه.

ومن الأمثلة ذات الصلة والطابع الذي يهدف لتشويه تلك الأسماء نذكر اسم الحمار الذي حفر أيضا في أذهاننا بالإهانة رغم أنه ورد اسم الحمار في القرآن الكريم. قال جل شأنه

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥ ﴾

[الجمعة: ٥]

من أقوال أهل التأويل في هذه الآية الكريمة: مثل الذين أوتوا التوراة فحملوا العمل بها ثم لم يحملوها: ثم لم يعملوا بما فيها وكذبوا بمحمد ﷺ كمثل الحمار يحمل أسفارا أي يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم لا ينتفع بها ولا يعقل ما فيها.

نتبين من ذلك أن الله خلق كل شيء وما حواه لحكمة ولم يخلقه عبثًا ومن ثمّ كرم الله الإنسان بتسخير كل شيء في الكون لمنفعته وسخر له السماوات وما فيها من شمس وقمر ونجوم. وسخر له الأرض وما فيها من كائنات لينتفع بها، قال تعالى:

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل: ٨]

نستنتج من جديد في أثناء ذلك أن التشبيه غير الشتم وهو اللفظ المستعمل في غير محله أو في غير معناه الأصلي مانع من الالتفات إلى المعنى الحقيقي.

فإذا قلنا بأن الطبيب حمار في الهندسة. يعني ذلك أن الطبيب ليس على المستوى العالمي. أو ليس على دراية كاملة أو معرفة في مجال الهندسة. وهو الإدراك والوعي وفهم الحقائق عن طريق العقل المجرد. أي ليس له علم في تلك المجال وبالتالي نجد أن كل إنسان حمار في مجال الآخر، وهذه ليست إهانة، لأنه كما قلت- رسخت تلك الأسماء بهذه الصفات في أذهاننا بالإهانة بهذا الشكل. ويرجع ذلك إلى آبائنا وأجدادنا وفي الأصل إلى الإنسان الذي حرف وصنف ما يحلو له. ثم تأتي قضية تقليد الناس لعادات آبائهم.

نقف هنا عند الآية الكريمة:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]

ملخص ما سبق في هذه الآية الكريمة والذي أردت توضيحه أن تقليد الأجيال اللاحقة للأجيال السابقة مذموم في حين يدعو الله الناس أن يتبعوا ما أنزله على الرسل فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد الآباء لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو نسيان المنهج.

فإذا تأملنا لنجد أن منهج الأرض قد يتغير ولكن منهج السماء دائما لا يتغير. والناس حين يحتجون ويقولون بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا وهذا تبرير منهم. لو كان ذلك حقًّا وصدقا لما كرر الله الرسالات. لأننا لو كنا نتبع ما ألفينا عليه آباءنا بصدق لكان أبناء سيدنا آدم عليه السلام سيتبعون ما كان يفعله آدم عليه السلام.

ثم يأتي أبناء أبناء آدم يتبعون آباءهم وهكذا يظل منهج السماء متوارثا فلا يتغير. إلى أن يصل بنو البشر أجمع إلى الهداية بالإسلام والإيمان بخاتم الأنبياء والرسل سيدنا محمد ﷺ فهذا دليل على أن الناس غيروا المنهج. فهي قضية مكذوبة لأنهم لو اتبعوا ما وجدوا عليه آباءهم لظل منهج الله في الأرض غير متأثر بغفلة الناس ولا متأثرٍ بانحرافات. ولكن المنهج اختلف لدخول أهواء البشر. والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا التبرير الذي لا دليل له من صدق ولا برهان في الواقع في قول الله سبحانه

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]

أي يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى لو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون. فأنتم تتبعونهم اتباعا بلا عقل ولا تفكير اتباعا أعمي.

نرى الأمم السابقة كلها قالوا هذه الجملة. هذا ما وجدنا عليه آباءنا. فكلما يرسل الله رسالته لقوم ضلوا وعصوا فيقولون تلك الجملة.

يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ ﴾ [الزخرف: ٢٣]

وهذا يدل على اتباع أهوائهم لأمور عديدة تتماشى مع أهوائهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تخدم مصالحهم الدنيوية الزائلة.

فمنهم من كذب الرسل لأجل تجارته في بيع الأصنام. فيظن أنه لو ترك ذلك ستهلك تجارته ويتعرض لخسائر مالية.

ومنهم لم يؤمنوا لأجل إشباع رغباتهم الشهوانية لأن منهج الله يقيد شهواتهم ويؤدب حركتهم في الحياة، فهم يريدون أن ينطلقوا في الحياة الدنيا دون قيود لا ضابط لها.

ومنهم من تركوا عقولهم لآبائهم وأجدادهم ليرثوا عاداتهم دون تمييز، بمعنى عدم التفتيش والاستقصاء والتفكير والتأمل ليحمل معنى المعرفة والدراية وإدراك الشيء على حقيقته بالتبصرة التي تحتاج إلى تأمل وتمهل وإمعان نظر بناء في البحث عن الحقيقة الإلهية مبتدئا بأدلة عقلية ثم يتدرج بعد ذلك إلى معرفة الله تعالى..

الباب الثاني

حب الله هو الحب الأعظم في الوجود فقد خضعت ملكات النفس له.

قالوا كيف تحبه ولم تراه تره؟

قلت وكيف يكون إلها إذا رأيته بقدراتي الضعيفة التي أنا عليها الآن والله أعظم من أن تدركه الأبصار فهو القوي

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

قالوا وكيف عرفت وجود الله؟

قلت اقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ [الذاريات: ٢١]

قالوا ولماذا أحببته؟

قلت اقرأ قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨١]

قالوا اللهم ارزقنا حبك وحب من أحبك..

قلت أحبكم الله الذي أحببتموني فيه

حب الله سبحانه وتعالى هو أعظم حب على الإطلاق.

كيف لا أحبه وهو الخالق الذي أوجدني في الدنيا؟

كيف لا أحبه وهو الذي يرزقني وإذا مرضت فهو يشفيني؟

كيف لا أحبه وهو أرحم الراحمين؟ فهو أرحم بعباده من الأم بولدها بل أرحم بالعباد من أنفسهم. والأعجب من ذلك أن سبحانه وتعالى رحيم بعباده في الدنيا سواء مؤمنين أو كافرين. طائعين أو عصاة. فهو سبحانه وتعالى يرزق المؤمن والكافر ويطعمهم ويسقيهم ويشفيهم في الدنيا. فلولا رحمة الله تعالى ما تنفس أحد الهواء ولا وجد شربة ماء.

فمقتضى العقل أن الله أوجد الرحمة في خلقه أنه أرحم الراحمين. أرحم من كل راحم. لأن الله هو الذي جعلهم يرحمون.

كيف لا أحبه وهو الذي أنعم عليّ بالسمع والبصر والحواس والشم والتذوق.. كل النعم، لا تحصى ولا تعد؟.

عادة لا يشعر المرء بقيمة النعمة إلا إذا فقدها. فإذا تأملنا في نعمة البصر فحسب نرى أنها تأتي من تفاعل الحواس مستقبلة من خارج المرئيات والملموسات والمحسوسات والمدركات وترسل إشاراتها إلى الداخل العصبي ثم تستقبل ردود الأفعال المتنوعة بواسطة الأشعة التي تنعكس من الجسم المرئي باتجاه العين عضو الأبصار. تبدأ في إرسال الصور مقلوبة إلى المخ فيراها ومن ثمّ ينفعل لها الوعي والإدراك ليستطيع جهاز الإبصار التمييز بين الألوان والأشكال والأحجام والضوء والظلام.

كما تجد أن العين قادرة على الإفصاح عما يشعر به الإنسان فتذرف الدموع عند الحزن وغير ذلك.

من عظمة الله ونعمته أمد العين بوسائل لحمايتها ووقايتها من الأخطار والأضرار الطبيعية والبيولوجية. فنجد الدموع المليحة غسولا ووقاية من

الميكروبات. كما نلاحظ حركة الرموش تتم بطريقة لا واعية دون تفكير حماية للعين.

وأكثر من ذلك في قدرة الله سبحانه وتعالى مما تحدث عنه وأشار إليه العلماء والباحثون والأطباء. فإذا ما تحدثنا عن فضائل النعمة الواحدة لا شك أننا نحتاج مجلدات ضخمة لتغطية فضائلها ولا نستطيع إذا أمضينا كل أوقاتنا في تعداد بركاتها.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٤]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ١٨]] أليس الله يستحق الحب والشكر والثناء وأن الإنسان يسلم نفسه لربه منكسرا بين يديه متذللا لعظمته مقدما حبه له سبحانه وتعالى على كل حب في الوجود والخضوع لله بالطاعة؟

فحب الله سبحانه وتعالى يأتي تحت غطاء اتباع منهاجه والإيمان بما جاء به نبينا محمد ﷺ من عقيدة والعمل بمقتضى المنهج والالتزام بطاعته والبعد عمن يغضبه.

قال الله تبارك وتعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]

كما تجد فطرة الله التي فطر الناس عليها انسجاما لملكات النفس، انسجام ذاتي وشعور بطمأنينة وسعادة وراحة بال لارتباط النفس البشرية بطاعة الله. فيصير إنسانا ربانيا في التقرب من الله وتطبيق أحكامه بما تعنيه من الالتزام والاتقاء لأحكام الله تعالى. تمامًا عكس الإنسان البعيد عن طاعة الله. ينتج عنه تضارب في ملكات النفس البشرية يؤدي إلى الاصابة بالاكتئاب والألم النفسي يخلف أحيانًا عواقب وخيمة مدمرة. وهذا دليل قاطع على أن الإيمان بالله ﷻ والتقرب له هو السعادة في الدنيا والآخرة.

إن السعادة ليست في وفرة المال ولا سطوة الجاه ولا كثرة الأولاد.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين ثنايا جوانحه من صفاء نفس وطمأنينة قلب وانشراح صدر وراحة ضمير.

السعادة الحقيقية تتمثل في انسجام ملكات النفس البشرية والخضوع لله سبحانه وتعالى والتمسك بأوامره؛ فقد يكون الفقير أسعد البشر أو قد يكون المريض أسعد من الأصحاء. فكيف يكون إلها وتدركه الأبصار؟! هو أعظم من أن تدركه الأبصار لعظمته وجلاله وكماله.

قال العلماء لا تدركه الأبصار في الدنيا لأن نفي الإدراك لا ينفي الرؤية، لم يقل: لا تراه الأبصار.

لم يكن إدراك الله في الدنيا بأبصارنا لأنها تعد صفة ضعف بقدراتنا الضعيفه. بل المعتقد أن يكون الإله فوق قدراتنا ومن ثمّ فوق قدرات الخلق أجمع. أبصارنا لا تستطيع إبصار أو رؤية الجن.

قال جل شأنه

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ ﴾ [الأعراف: ٢٧]

الراجح من أقوال أهل التفسير هو عدم إمكانية رؤية الجن على خلقتهم التي خلقوا عليها بمعني أن العين البشرية ليس لها قدرات في إدراك الجن ورؤيته. فكيف يستطيع رؤية الله على حالنا وقدراتنا هذه في الدنيا.

إذا لم تستطع رؤية خلق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى يعد ذلك غير منطقي ولا يقبله العقل تصديقا لقول الله:

﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]

أما رؤية المؤمنين لله ﷻ في الآخرة فلا شك فيها مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] فدل ذلك على أن المؤمن في الآخرة يرى الله وليس في الدنيا نستطيع رؤية الله تعالى.

وإذا تأملنا قول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ [الأعراف: ١٤٣] .

فهذا دليل على أن الجبل لم يطق النظر إلى الله تعالى لما تجلى له. فكيف يطيقها الإنسان بطبيعته وقدراته في الدنيا التي عليها؟

نستنتج مما سبق أيضًا قضية مهمة للغاية. من قالوا عزير ابن الله. ومن قالوا عيسى ابن الله.

قال جل شأنه:

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠]

بأي عقل ومنطق في الاستدلال وإدراك الأشياء بالوعي وبناء الحقائق الصحيحة المثبتة؟! كيف يتجسد الإله في صورة بشر؟!!! ولماذا؟

يقال لخلاص البشرية ليكفر عنهم خطاياهم وينقذهم ويتواصل معهم مباشرة متجسدا في صورة بشر من أجل الإنسان، لمعونة الإنسان ومساعدة الإنسان وكل البشر، ليعيش بين الناس ويكون متصلا بهم يعيش في مثل ظروفهم متاعبهم وآلامهم.

أيعقل ذلك؟ هذا لا يقبله عقل ولا منطق معا. هل الإله عاجز لخلاص البشرية من خطاياهم ليتجسد في بشر؟ هل عظمة الله وقدرته لم تستطع معونة الإنسان؟ أو قدرته عاجزة عن أن تمنعه من مساعدة الإنسان؟ أو الإله غير قادر على إدراك معيشتهم وظروفهم ومتاعبهم وآلامهم حتى يلجأ إلى التجسد في صورة بشر ويعيش بينهم؟

الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس: ٨٢]

وقال جل شأنه:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٧] .

فإذا أراد الله سبحانه وتعالى الهداية للناس أجمعين لو شاء لآمن من في الأرض كلهم. هو القائل في كتابه الكريم:

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩]

ولكن الله ﷻ أراد أن يستخلص من الناس عباده المؤمنين الذين يؤمنون به حقًّا في الدنيا. فهي دار اختبار وابتلاء وامتحان.. ينظر الله من يطيعه ومن يعصيه قال جل ثناؤه:

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢]

فكيف كنا نفرق ما بين طالب مجتهد وطالب غير مجتهد إلا بالاختبار والامتحان.

ينبغي التفريق بين الاختبار والامتحان. فالأول ما هو إلا تدريب وتأكيد للمعلومات والامتحان أداة لتقييم المستوى.

هكذا الدنيا لذلك من حكمة الله ورحمته أن أرسل الرسل والأنبياء وأنزل الكتب لإصلاح الخلق وإقامة الحجة عليهم.

مثل تأكيد المعلومات للطالب. قال الله تعالى:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥ ﴾ [النساء: ١٦٥]

لقطع هذه الحجة من أساسها بإرسال الرسل والأنبياء بأدلة وبراهين وتأييدها بالآيات البينات الدالة على صدقهم. قال سبحانه وتعالى:

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥ ﴾ [الحديد: ٢٥] .

لم يكن سيدنا عيسى عليه السلام إلها. ما هو إلا بشر نبي وليس بإله ولا ابن إله كما يزعمون. فإن كان الله خلقه من أم بلا أب ويقولون عنه إنه ابن إله. فكان من باب أولى أن يكون آدم عليه السلام إلها لأنه خلقه الله سبحانه وتعالى بدون أب وأم. يقول الله جل وعلا

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ﴾ [آل عمران: ٥٩]

فحكم القرآن يدل على أن عيسى عليه السلام إنسان مخلوق وهو عبد من عباد الله أنعم الله عليه ولن يستنكف عن عبادته. قال تعالى:

﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ ﴾

[النساء: ١٧٢] .

بل قال سيدنا عيسى عليه السلام لقومه أنا عبد الله مخلوق بشر قال الله تعالى على لسان عيسى

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم: ٣٠] .

بل أمر قومه أن يعبدوا الله:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٧]

كل هذا الافتراءات والمراوغات اللفظية بأن عيسى عليه السلام إله أو ابن الله منافية لموازين العقل والمنطق والفطرة السليمة. وقد أودع الله تعالى كل الحقائق في القرآن الكريم.

ينبغي عليك أيها الإنسان البعيد عن ذكر الله أن تعود إلى هذا الخالق العظيم وأن تعود إلى نور القرآن. فهذه الآيات لكي تتأمل كلام الله تعالى المنزل على عبده ورسوله نبينا محمد عليه الصلاة والسلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال جل شأنه:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢].

أنزله الله على أشرف رسول إلى خير أمة بأفضل الشرائع وأسمحها وأكملها برهانا ساطعا على نبوته ورسالته وحجة قاطعة. قال ابن عباس فضل الله هو الإسلام، ورحمته هو القرآن.

لقد تكفل الله بحفظ كتابه من التحريف والتغيير والتبديل.

قال جل في علاه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر: ٩]

أي حافظون له من أن يزاد فيه أو ينقص منه فتولى سبحانه وتعالى حفظه فلم يزل محفوظا غير الكتب السابقة كما قال المفسرون: وكلت حفظه إليهم فبدلوا وغيّروا وحرفوا على هواهم.

قال الإمام محمد متولي الشعراوى في هذا السياق القرآن قد جاء بعد كُتب متعددة، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله؛ إلا أن أيَّ كتاب منها لم يكن معجزة؛ بل كانت المعجزة تنزل مع أيّ رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ، وعادة ما تكون المعجزة من صنف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم. وما دام المنهج مفصولًا عن المعجزة؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أن يحافظوا عليها، وكان هذا تكليفًا من الحق سبحانه لهم. والتكليف . كما نعلم . عُرْضة أن يُطَاع، وعُرْضة أن يُعصى، ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكُتب المنزّلة إليهم.

ونجد الحق . سبحانه وتعالى . يقول:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٤٤]

أي: أن الحق . سبحانه وتعالى . قد كلّفهم وطلب منهم أن يحفظوا كتبهم التي تحمل منهجه؛ وهذا التكليف عُرْضة أن يطاع، وعُرْضة أن يُعصى؛ وهم قد عَصَوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير.

وقال الحق سبحانه عنهم:

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

بل أضافوا من عندهم كلامًا وقالوا: هو من عند الله؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه:

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٩] .

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين على رسول الله ﷺ.

ولذلك لم يَشَأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر؛ لأن التكليف عُرْضة أن يطاع وعُرْضة أن يُعصى، فضلًا عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة في أنه يحمل المنهج، وهو المعجزة الدالة على صدْق بلاغ رسول الله ﷺ في نفس الوقت.

ولذلك قال الحق سبحانه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

والذّكْر إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن؛ وهو الكتاب الذي يحمل المنهج؛ وسبحانه قد شاء حفْظه؛ لأنه المعجزة الدائمة الدالة على صدق بلاغ رسوله ﷺ.

وكان الصحابة يكتبون القرآن فَوْرَ أن ينزل على رسول الله ﷺ، ووجدنا في عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن؛ ولكنهم يتفنّنون في وسائل حفْظه؛

فهناك مَنْ طبع المصحف في صفحة واحدة؛ وسخَّر لذلك مواهب أُناسٍ غير مؤمنين بالقرآن.

وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة. وفي ألمانيا. على سبيل المثال. توجد مكتبة يتم حفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن في مكان مُعيّن مُحدّد.

وفي بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة، ويُنهي حفْظه وعمره سبع سنوات؛ وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى.

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض ممَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة؛ فهو لا يستطيع أن يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقَارب لها؛ إلى أن يردّه حافظٌ آخر للقرآن.

ولكي نعرف دقّة حفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم؛ نجد أن البعض قد حاول أن يُدخل على القرآن ما ليس فيه، وحاول تحريفه من مدخل يرَوْنَ أنه قريب من قلب كل مسلم، وهو توقير الرسول ﷺ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه:

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ ﴾ [الفتح: ٢٩]

وأدخلوا في هذه الآية كلمة ليست فيها، وطبعوا مصحفًا غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها " محمد رسول الله ﷺ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم " وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا: " إن به شيئًا زائدًا "، فردَّ مَنْ طبع المصحف " ولكنها زيادة تحبونها وتُوقّرونها "، فردَّ العلماء: " أن القرآن توقيفيّ؛ نقرؤه

ونطبعه كما نزل ". وقامت ضَجَّة وحسمها العلماء بأن أيّ زيادة. حتى ولو كانت في توقير رسول الله ﷺ ومحبته . لا تجوز في القرآن، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد ﷺ.

ومن العجيب تجد امرأة متبرجه ترتدي قلادة في عنقها تتحلى بها على شكل مصحف مطلي بالذهب وبداخله مصحف.

ومن ثمّ تجد كتاب الله في كل مكان في المنزل وفي السيارة وربما قائدها لا يقرأ القرآن.

القرآن الكريم حفظه الله، حفظ على يد الصالح والطالح وغير المسلمين.

البشر لا يطيقون القيود والانقياد. فهم يريدون إلها يتماشى ويوافق أهواءهم ورغباتهم ومقاصدهم. إلها لا يأمرهم بتفعل ولا تفعل قال سبحانه وتعالى:

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

[القصص: ٥٠]

فيعبدون الأصنام التي يصنعونها بأيديهم. فهي لا تضر ولا تنفع ولا تملك لهم نَفْعًا وَلا ضَرًّا ولا تغني عنهم شيئا ولا تأمرهم بمنهج يلتزمون به يساقون على خطاه. ومنهم من عبدوا بشرا مثلهم ثم توارثت الأجيال المتعاقبة الكثير من أنواع المفاهيم الخاطئة والمغلوطة دون تأمل وتفكير.

ثم تتناقلها الأجيال جيلا تلو الآخر.

ومنهم من سلبت عقولهم وألبابهم وراء أجدادهم وآبائهم فغدوا يتصرفون بدون عقل ولا دراية.

ومنهم من أتوا إلى الدنيا على دين ومعتقدات آبائهم وتقاليدهم وساروا عليها خوفًا من بطشهم وجبروتهم، وظلوا هكذا دون وضعه تحت مجهر المنطق والعقل.

ومنهم من أدرك الحقيقة وكتمها، قال جل ثناؤه

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦ ﴾ [البقرة: ١٤٦]

هل يعقل هذا بعد كل ذاك أن يكون الإله بشرا أو تجسد في بشر؟

هل الله يجوع ويعطش وينام ويتعب ويتألم؟ فماذا لو أصابك مكروه وأردت أن تلجأ إلى الله في أي لحظة؟ فربما تجد الإله نائمًا أو متعبا بعدم قدرته على الحركة، فكيف يسمعك أو يستجيب دعاءك؟ ومن ثمّ يكون مريضًا. فإن لم يكن قادرًا على شفاء نفسه فكيف يشفيك أو يلبي دعاءك؟!

تأمل جيدا الفرق بينك وبين من كانوا يعبدون الأصنام والأوثان؟ وما الفرق بينك وبين الحمار يحمل اسفارا؟

هناك نقطة أخرى أرغب في طرحها في ذلك السياق. وهي قضية من يدعون أن الله اتخذ ولدا.

قال جل وعلا ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ ﴾ [البقرة: ١١٦]

من أقوال العلماء: الله منزه عن اتخاذ الولد ولا يليق بجلاله. كيف يكون لله ولد ولم يكن له زوج ينشأ الولد عن ازدواجه بها؟ فإن الله سبحانه وتعالى تقدس وتنزه عن اتخاذ الولد وتعالى عن ذلك علوا كبيرا. فهو سبحانه وتعالى له

ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما هو الواحد الفرد الصمد وهو الغني عما سواه قال جل شأنه

﴿ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم: ٩١-٩٢]

قال تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقال سبحانه:

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤]

وقال

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٢]

فمن يعرف الله ﷻ حق المعرفة ينبغي ألا يصدر عنه مثل هذا القول الذي يفيد أن الله جنس مثله، فإن قائل ذَلكَ لا يكون على دراية ولا على أدنى علم بالله العلي العظيم، فإنه سبحانه وتعالى لا جنس له ليكون له ولد منه. وكيف ذلك وهو ملك السماوات والأرض الكل قانت لعزته وجلاله خاضع لقهره مسخر لمشيئته. فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولدا مجانسا له سبحانه وتعالى هو القائل

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣]

إذ كيف يكون ولد لله وهو لا يخلو إما أن يكون في السماوات أو في الأرض ولله ملك ما فيهما. ولو كان كما يزعمون، لم يكن كسائر ما في السماوات والأرض من خلقه وعبيده، فإن الله بديع السماوات والأرض ولا شبيه له ولا نظير. وليس له جنس فيكون له منه زوج وهو القائل

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ﴾ [الأنعام: ١٠١] .

وإذا تأملنا في أن الإنسان قد يحتاج إلى الولد لأمور منها بقاء ذكره.

ومنها أن يتخذ له قوة وعصبية ليعتز بها. ومنها وجود الولد زينة له. ومنها أن يحتاج إليه ربما لقضاء مصالحه وقضاء حوائجه وقد يحتاج إلى بر الولد عند عجزه أو فقره، كل ذلك يحتاج الإنسان للولد، أما الله ﷻ فلا يحتاج إلى شيء من هذا وذاك لأنه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلا وأبدا. يقول الله تعالى في محكم كتابه

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ ﴾ [يونس: ٦٨]

وهذا يرجع إلى جهل وافتراء باطل لا أساس له من الصحة ولا دليل أو برهان على ما يدعون. فلا دليل من علم أو وحي إلهي أو عقل أو سلطان. لذلك قال جلا شأنه:

﴿ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨ ﴾ [يونس: ٦٨]

كما لا يمكنهم أن يأتوا بشيء من دليل أو برهان. تحدى الله ﷻ في قوله تعالى:

﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٥٧]

أي هاتوا برهانا على ذلك يكون مستندا إلى كتاب منزل من السماء عن الله: أنه اتخذ ما تقولونه، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل، بل لا يجوزه العقل بالكلية.

وقال سبحانه:

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]

جاء في تفسير ابن كثير: بين الله لهؤلاء المفترين أنه لو أراد الله أن يتخذ له ولدا لاصطفى من يشاء من عباده ولكنه سبحانه وتعالى منزه عن اتخاذ الولد وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه. بل هو محال وإنما تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه. قال جل وعلا

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾ [الزمر: ٤]

فهذا لا يستحيل وقوعه لمقصد المتكلم وهو الله. فجوابه ممتنع لامتناع الشرط، ومن مقال لبندر بن أحمد العولقي في هذا السياق: إن وجود الابن يستلزم أن الأب سيموت ومن ثمّ سيخلفه ابنه ويرثه وهذا تصريح بأن الأب سيفقد صفة الحياه أي سيموت الأب بالتأكيد. فمن زعم أن لله ولدا فقد زعم

أن الله ليس بالحي وأن الموت سيغلب الله فصار ذليلا وليس بعزيز، فهل من تعتقد أن رب الكون يكون ذليلا لشيء كالموت أو غيره.

ولو قلنا لله ولد، ثم جاء شخص وقال لنا. إذا أنتم تقولون لله ولد فأنا أقول لله زوجة وآباء وأحفاد وبنات وأعمام.. . الخ، فهل سنملك إزاء جوابه إلا صمتا مما يقول، لذا جاء القرآن الكريم بالحجة العقلية في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١] .

كما أن وجود الابن يستلزم أن الأب سيحتاج إلى ابنه. وهذا فيه تصريح بأن الأب سيفقد صفة "الاستغناء " لذا جاء القرآن الكريم في قوله تعالى

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ ﴾ [يونس: ٦٨] .

وأن الحاجة إلى الولد سيغلب الله ليصير ذليلا، فهل الإله يكون ذليلا؟

بالطبع وجود الابن يستلزم أن الأب ليس له الملك لأن الابن يرثه ومن ثمّ سيأخذ ابنه شيئا من الملك، وفي هذا تصريح بأن الأب سيفقد شيئا من ملكه. لذا قال جل شأنه:

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١٧]

فمن زعم أن لله ولدا، فقد زعم أن ملك الله ناقص فليس له ما في السماوات والأرض.

أيضًا أن وجود الابن يوحي بأن الأب سيعجز عن بعض الأعمال أو كلها ومن ثمّ سيساعده ابنه فيتوكل عنه. وهذا يعني أن الأب سيفقد صفة "القدرة والوكالة " فمن قال بأن لله ولدا فقد زعم أن الله ليس بالقادر على شيء وليس هو الوكيل.

ووجود الابن هذا يعني أن الأب سيشيخ ويهرم. ولهذا يتخذ ولدا وبالتالي هذا تصريح بأن الأب سيفقد صفة " القوة " فمن زعم أن لله ولدا فقد زعم أن الله ليس بالقوي، فهل يوجد إله ضعيف؟!!

وبعد تلك المعطيات سنجد النتيجة النهائية بأننا لو قلنا عن الله بأن له ولد فسنكون شبهنا الرب بالمخلوقات الناقصة فسلبنا عن إله الكون كل صفات الكمال اللائقة بالرب.

أما من قال بأن الله ليس له ولد فقد عرف ذلك من خلال أن الله خالق، والخالق لا يمكن أن يكون كالمخلوق. فالمخلوق ناقص ضعيف ذليل أما الإله فلا ينبغي إلا أن يكون: عزيزا غنيا ملكا قويا قادرا قدوسا حكيما حيا قيوما.. .الخ

أيها القارئ المجهد نفسه بحثا عن الحقيقة إن هذا الموضوع لك أنت وحدك فلا تسلم عقلك لأحد، اقرأ الموضوع بعيدا عن ردود ومجادلات ومماحكات. بعقل لتصل للحقيقة التي هي قطعًا أمامك ظاهرة كبدر في السماء في ليلة مظلمة. لا شك فيها ويتقبلها العقل المجرد والمنطق في آن واحد.

إن المسلمين يعظمون عيسى ويحبونه حبا شديدا؛ لأنه من أنبياء الله والإيمان بهم أحد أركان الإيمان بالله في دين الإسلام، ولا يسمح الإسلام ولا يجيز لأحدٍ أن ينتقص عيسى عليه السلام أو يسبه أو يبغضه، بل يعتبر من لا يؤمن بعيسى عليه السلام ورسالته مكذبا للقرآن ولمحمد ﷺ، وبهذا يخرج عن دائرة المسلمين، وفي الوقت نفسه فالمسلمون لا يرفعون عيسى عليه السلام عن منزلته البشرية فهو عبد الله ورسوله جعل الله خلقه آية دالة على عظمته.

فقف مع نفسك وقفة تهز كيانك وتضغط على عقلك بطوفان الحقائق الضخمة والأسئلة التالية :

١- ماذا عسانا أن نخسر لو أننا قلنا بأن المسيح عيسى عليه السلام هو رسول الله؟ ألسنا بذلك قد عظمناه أشد التعظيم الذي يليق به؟

٢- لماذا نغالط أنفسنا ونقول بأن عيسى إله بعد قيام البراهين على بشريته ونبوته ورسالته؟، أليست جرأتنا سببا إلى غضب الله منا أشد الغضب لأننا استنقصناه أشد النقص؟

٣- ألم يتميز ربنا بأنه خالق الكون؟ فلماذا لا نكمل تميزه بتوحيده وإفراده بالعبودية؟

٤- إن نعَم الرب تنزل عليك صباح مساء فهل تقابل الإنعام بالعداء والجحود والاستنقاص؟

٥- هل تظن أن الذين تجرأوا فزعموا أن لله ولدا سيخفون الحق الأبلج الذي كفلق الصبح وأنهم سيطفئون الشمس بمنافيخهم؟!!

في النهاية لا ينفعك أحد عندما تأتي يوم القيامة فردًا.

لنتدبر ما قاله إله الكون في رسائله التي أنزلها لسكان كوكب الأرض: قال جل ثناؤه:

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ٩٥ ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

وفي سياق آخر لمن ينكرون وجود الله تعالى، كيف تتخيل عقولهم تلك الجريمة في حق عقليتهم، لم تُسلب منهم عقولهم فحسب بل طمست على أعينهم، أين صفة العقل في الذات الإنسانية على إدراك الذات الإلهية؟ بل أين إدراكهم واستنباطهم مما يدور من حولهم من مادة كونية وحركات وسكون؟، بل أين نفسك التي بين جنبيك؟

لا عقل كالتدبير. مناط التكليف الذي يفرق ما بين نوع ونوع، إن لم تكن ترى كيف خلق الله سبحانه وتعالى السماوات وما تحتويها من شمس وقمر ونجوم. إن لم تنظر إلى الأرض وما تحتويه من جبال وجمال وبحار وأنهار وأشجار ونباتات.. الخ، فانظر إلى نفسك التي بين جنبيك مصداقا لقول الله تعالى:

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣ ﴾

[الذاريات: ٢٠-٢٣]

أي انظر إلى أقرب ما يكون إليك وأعمق ما تشعر به، انظروا إلى أنفسكم عبرة لكم ودليلا لكم على ربكم. أفلا تبصرون؟

كما جاء في الردود العلمية على من ينكر وجود الله تعالى للشيخ صلاح نجيب الدق، فإننا نعيش في زمانٍ كثرت فيه الفتن، ومن أخطر هذه الفتن: ظهور طائفة من الناس في الدول الإسلامية ينكرون وجود الله تعالى، ويسندون ما يحدث في هذا الكون إلى الطبيعة، أو إلى الصدفة، ويجهرون بذكر أدلتهم الواهية الباطلة على إنكار وجود الخالق العظيم في وسائل الإعلام، مستغلّين ضعفَ عقيدة توحيد الله تعالى عند بعض المسلمين.

لقد رأى الملحدون الكثيرَ من آيات الله تعالى في الكون وفي أنفسهم من إحكامٍ ودقة في الخَلق ما يشهد بوجوده، وأنه هو الخالق الحكيم مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولكنهم آثروا الإنكار والجحود، مع يقينهم بوجود هذا الخالق العظيم؛ كما في قوله تعالى:

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤] ، فكان ذلك الجحود والإنكار نتيجة كبرهم واستعلائهم، وسيطرة أهوائهم وشهواتهم على عقولهم وأفعالهم.

إننا لنعجَب ممن تجرأ على الله تعالى، وأنكر وجوده، بل صار مبارزًا ومحاربًا له سبحانه بدعوته إلى مثل ذلك الاعتقاد الفاسد، ولو نظر ذلك

الجاحد لوجود الله تعالى في نفسه، لعلم ضعف قوته، وحاجته إلى خالقه سبحانه خاصة وقت مرضه.

تعريف الإلحاد:

الإلحاد: يعني إنكار وجود الله تعالى، والقول بأن هذا الكون وُجد صدفة بلا خالق، وبأن المادة أزلية أبدية، وتغيرات الكون قد تمت بالمصادفة، أو بمقتضى طبيعة المادة وقوانينها، وسينتهي الكون كما بدأ، ولا توجد حياة بعد الموت.

(الموسوعة الميسرة في الأديان جـ٢ صـ٨٠٣).

ويطلق القرآن الكريم على المنكرين لوجود الله تعالى اسم (الدَّهْرِيَّة)، وفيهم قال الله تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤] .

قال الإمام ابن كثير (رحمه الله): يخبر الله تعالى عن قول الدَّهريَّة من الكفار ومَن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ [الجاثية: ٢٤]

أي ما ثَم إلا هذه الدار، يموت قومٌ ويعيش آخرون، وما ثَم معادٌ ولا قيامةٌ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم وهم ينكرون البداءة والرجعة، ويقولها الفلاسفة الدَّهريَّة الدورية المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستةٍ وثلاثين ألف سنةٍ يعود

كل شيءٍ إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مراتٍ لا تتناهى، فكابَروا المعقول، وكذبوا المنقول؛ ولهذا قالوا:

﴿ وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ ﴾ [الجاثية: ٢٤]

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٤]

أي: يتوهَّمون ويتخيَّلون.

(تفسير ابن كثير جـ١٢ صـ٣٦٣).

تعريف الدَّهريَّة:

جاء في (موسوعة المفاهيم) للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية:

الدَّهريَّة: مذهب كل من اعتقد في قدَم الزمان والمادة والكون، وأنكر الألوهية والخَلْق والعناية والبعث والحساب، كما يرون أن الموجب للحياة والموت هو طبائع الأشياء وحركات الأفلاك.

وهؤلاء الدَّهريَّة المنكرون للألوهية هم أقرب الكافرين من الملاحدة المعاصرين، كما يخبرنا القرآن الكريم عما سيدعيه بعض الدهريين بعد أربعة عشر قرنًا عن خلق الكون والإنسان من عدم، فيقول الحق ﷻ:

﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٥]

قوله سبحانه: ﴿ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ [الطور: ٣٥] هنا تعني: من غير مادة ومن غير سبب.

كما تعني ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] أن الشيء يخلق ذاته، وقد ادعى الملاحدة المعاصرون وقوع هاتين الفرضيتين المستحيلتين.

(وهم الإلحاد .للدكتور عمرو شريف ص: ١٨).

كيف دخل الإلحاد بلاد المسلمين؟

يمكن أن نوجز أسباب دخول ظاهرة الإلحاد إلى كثير من بلاد المسلمين فيما يلي:

(١) انحراف كثير من المسلمين عن دينهم، ونسيانهم حظًّا مما ذُكّروا به، وإلا فإن الصبر والتقوى كفيلان بردّ كل باطل.

(٢) هزيمة العالم الإسلامي أمام غزو الدول الأوروبية، فما كاد الأوروبيون يمتلكون القوة المادية، ويستخدمون الآلة، ويبنون المصانع - حتى اتجهوا إلى الدول الإسلامية؛ بحثًا عن الأسواق لبيع منتجاتهم الصناعية، وجلبًا للمواد الخام اللازمة للصناعة، ولما كان العالم الإسلامي في غاية الضعف - اقتصاديًّا وعسكريًّا - لم يصمد أمام تلك الهجمة، وكان للهزيمة العسكرية أثرها في زعزعة العقيدة، ووجود الشعور بالنقص، وتقليد الأوروبيين، والتشبُّه بأخلاقهم؛ ظنًّا من بعض المسلمين .لشدة جهلهم . أن أوروبا لم تتطور إلا عندما أبعدت الدين عن الحياة.

(٣) احتلال الدول الغربية لكثير من بلاد المسلمين؛ فلقد عانى المسلمون من الاستعمار وويلاته؛ حيث امتصت الدول الغربية دماء المسلمين، وخيراتهم، وأوطانهم.

(٤) تركيز الدول الأوروبية على إفساد التعليم، والإعلام، والمرأة، وتشويه صورة علماء المسلمين، مع الحرص على نشر الفوضى الخُلقية، والإباحية؛ حيث غرق كثير من الشباب في هذا المستنقع الآسن، والإلحاد لا يظهر إلا في مثل هذا الجو.

(٥) انتشار الجهل بدين الإسلام، وانتشار الخرافات بين المسلمين؛ فاستغل الملاحدة ذلك، ودخلوا من خلاله إلى الطعن في الدّين.

(٦) إرسال كثير من أبناء المسلمين إلى الدول الأوروبية لطلب العلوم المختلفة، وهم غير محصنين بالعقيدة الصحيحة، فعاشوا في تلك البلاد، وتأثروا بما فيها من أفكار وأخلاق، وربما رجعوا بشهادة الدكتوراه بعد أن يفقدوا شهادة: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله.

(٧) تقصير علماء المسلمين في جانب الدعوة إلى الله تعالى، وخاصة في جانب ترسيخ عقيدة توحيد الله تعالى.

(٨) سقوط الخلافة الإسلامية.

(٩) اهتمام كثير من المسلمين بملذات الدنيا، والركون إلى الراحة.

(رسائل محمد بن إبراهيم الحمد في العقيدة. صـ٣١: ٢٩).

الآثار المترتبة على انتشار ظاهرة الإلحاد:

للإلحاد آثارٌ سيئةٌ على الأفراد والجماعات، يمكن أن نوجزها في الأمور التالية:

(١) كثرة انتشار القلق النفسي، والاضطراب، والحرمان من طمأنينة القلب وسكون النفس؛ قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤].

كيف لا يصيب الملاحدةَ الحزن والهم والقلق وفي داخل كل إنسان منهم أسئلة محيرة؟ مَن خلَق الحياة؟ وما نهايتها؟ وما سر هذه الروح التي لو خرجت لأصبح الإنسان جمادًا؟ مَن يجيب عن تلك التساؤلات؟!

وهذه الأسئلة قد تهدأ في بعض الأحيان بسبب مشاغل الحياة، إلا أنها ما تلبث أن تعود، وما نراه اليوم من كثرة إدمان المخدّرات دليلٌ على ذلك.

(٢) الأنانية والفردية؛ نظرًا لاشتغال كل فرد بنفسه؛ فلا رحمة ولا شفقة، ولا عطف ولا حنان، أين ذلك كلُّه من الرحمة في الإسلام؟

روى الشيخان عن أنس بن مالكٍ، عن النبي ﷺ قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه)

(البخاري حديث: ١٣/ مسلم حديث: ٤٥).

(٣) حب الجريمة، وهذا لا يحتاج إلى دليل؛ فواقع الحياة في الغرب، ومعدَّلات السرقة والخطف - شاهدٌ على ذلك.

(٤) هدم نظام الأسرة؛ وذلك أن الأسرة الملحدة تعيش في تفكُّك وضياع، وهذا يؤدي إلى فساد المجتمع.

(٥) الرغبة في الانتحار؛ تخلُّصًا من الحياة، والغريب في الأمر أن أكثرية المنتحرين ليسوا من الفقراء حتى يقال بسبب فقرهم، بل من الأغنياء المترفين، ومن الأطباء، بل من الأطباء النفسانيين الذين يظن بهم أنهم يجلبون السعادة للناس!

والغريب أن الانتحار في بعض بلدان الغرب له مؤيّدون، وهناك كتب تُعين الذين يريدون الانتحار، وتبين لهم الطرق المناسبة!

(٦) إرادة الانتقام، والظمأ النفسي للتشفّي من كل موجود، وانتشار الكراهية والبغضاء بين أفراد المجتمع.

(٧) انعدام الثقة بين الناس؛ فكل شخصٍ يخاف من أقرب الناس إليه.

(الإلحاد. عبد الرحمن عبد الخالق صـ٣١: ١٨).

(رسائل محمد بن إبراهيم الحمد في العقيدة: صـ٣٣: ٣١).

أسباب انتشارالإلحاد في المجتمع المسلم:

(١) نشأة الشخص في بيتٍ خالٍ من آداب الإسلام ومبادئ هدايته، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته - من نحو: والدٍ أو أمٍّ أو أخ - استقامةً، ولا يتلقى عنه ما يطبعه على حب الدين، ويجعله على بصيرة من حكمته؛ فأقل شبهة تمس ذهن هذا الناشيء تنحدر به في هاوية الضلال.

(٢) اتصال المسلم الضعيف النفس بملحدٍ يكون أقوى منه نفسًا وأبرع لسانًا، فيأخذه ببراعته إلى سوء العقيدة، ويفسد عليه أمر دينه، ومن هنا نرى الآباء الذين يُعنَوْن بتربية أبنائهم، تربية الناصح الأمين، يحُولون بينهم وبين مخالطة فاسدي العقيدة، يخشَون أن تتنقل إليهم العدوى من تلك النفوس الخبيثة، فتخبث عقائدهم وأخلاقهم.

(٣) قراءة الناشيء بعضًا من مؤلَّفات الملحدين وقد دسوا فيها سمومًا من الشبهات تحت ألفاظ براقة، فتضعف نفسه أمام هذه الألفاظ المنمقة، والشبهات المهرجة، فلا يلبث أن يدخل في زمرة الملاحدة.

(٤) تغلب الشهوات على نفس الرجل، فتريه أن المصلحة في إباحتها، وأن تحريم الله تعالى لهذه الشهوات خالٍ من كل حكمة، فيخرج من هذا الباب إلى الإلحاد.

(الإلحاد .لشيخ الأزهر الأسبق/ محمد الخضر حسين .صـ١١).

الرد على الملحدين:

سوف نذكر بعض الحقائق العلمية الموجودة في هذا الكون لنرد بها على الذين ينكرون وجود الله تعالى، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

(١) الماء واحد والأرض واحدة والنبات مختلف:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: انظروا أيها العقلاء، ينزل المطر من السماء على الأرض، فيخرج منها أقوات وثمرات، مختلفة الألوان والطعوم والروائح، يعيش الإنسان عليها، وتخرج من الأرض أيضًا أعشابٌ وحشائش متنوعة تعيش عليها سائر الحيوانات.

(تفسير الرازي جـ٣ صـ٤٧٦).

نسألكم أيها العقلاء: هل الطبيعة هي التي جعلت الماء واحدًا والأرض واحدة والنباتات مختلفة، الألوان والطعوم والروائح، أم أن هذه الأشياء أوجدت نفسها بنفسها؟!

نريد منكم جوابًا وكلمة حقٍّ، إن كنتم منصفين.

أليس اختلاف النباتات في اللون والطعم والرائحة دليلا واضحا على وجود إله عظيمٍ، خالقٍ لهذا الكون، مستحقٍّ للعبادة وحده؟

وصدق الخالقُ العظيم حيث يقول في كتابه العزيز:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل: ١٠-١١]

وقال سبحانه:

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٤ ﴾ [الرعد: ٤]

(٢) مراحل نمو الجنين في بطن أمه:

أثبَت علماء الطب الحديث أن تكوين الجنين في بطن أمه يمر بعدة مراحل متتابعة، بانتظام دقيق: فيكون أولًا نطفة، ثم تتحول إلى علقة، ثم تتحول إلى مضغة، تامة الخلقة أو غير تامة الخلقة، ثم تتكون بعد ذلك العظام، ثم تغطى باللحم حتى بدايات الحركة والحياة قبل الخروج إلى العالم.

(كشاف الإعجاز العلمي للدكتور/ نبيل هارون صـ١٩: صـ٢٠).

نقول للمنكرين لوجود الله تعالى:

هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت الجنين في بطن أمه يمر بهذه المراحل المختلفة قبل خروجه إلى الدنيا؟!

إن ثبوت هذه الحقيقة العلمية الباهرة دليلٌ واضحٌ لعقلاء العلماء الذين يعترفون بوجود خالق عظيم لهذا الكون.

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ

وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ ﴾ [الحج: ٥]

(٣) أغشية الجنين:

نقول للمنكرين لوجود الله تعالى:

أثبت علماء الطب الحديث أن الجنين في بطن أمه محاطٌ بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية تظهر بالعين المجرد كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى: (١) المنباري، (٢) الخوربون (٣) الفائضي.

(التبيان .للصابوني صـ١٣٢: ١٣١).

وبعد ثبوت هذه الحقيقة العلمية، نسأل الملحدين: هل الطبيعة أو الصدفة هي التي أحاطت الجنين بهذه الأغشية الثلاث؟!

إن العقلاء من العلماء يقولون: لا، إن وجود هذه الأغشية الثلاث حول الجنين لدليلٌ واضحٌ على وجود الخالق العظيم، الذي خلَق كل شيء بحكمة بالغة.

قال سبحانه:

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۖ ﴾ [الزمر: ٦]

(٤) رؤية الله تعالى:

يقول المنكر لوجود الله تعالى: إذا كان الله موجودًا، فلماذا لا نراه كما نرى الشمسَ والقمر والجبال والبحار وغيرها؟!

ونحن نسأل هذا الملحد:

هل لك رُوحٌ في جسدك، وعقل في رأسك؟!

فلا بد للملحد أن يقول: نعم، إن لي رُوحًا في بدني، وعقلًا في رأسي.

فإن كان هكذا، فهل رأيتَ رُوحك وعقلك؟

فسوف يقول: لا.

فهذا الملحد قد أقرَّ بوجود ما لم يرَه، واعترف بثبوت ما لم يشاهدْه، وإنما أقر واعترف بوجود الروح والعقل؛ لظهور أثرهما، فإن كان الأمر هكذا، فلا بد له أن يعترف بوجود الله؛ لأن كل المخلوقات الموجودة في هذا الكون من آثار قدرته سبحانه، ودلائل علمه وحكمته.

إذا لم يستطعْ هذا الإنسان الجاحد لوجود الله تعالى رؤيةَ رُوحه التي في جسده، فكيف يستطيع أن يرى الله تعالى الذي خلق هذه الرُّوح؟!!

(٥) لكل إنسان رائحة خاصة به:

أثبت الطب الحديث أن لكل إنسان رائحة خاصة به تميزه عن غيره من سائر البشر، من أجل ذلك تستخدم الشرطة الكلاب البوليسية في تعقُّب المجرمين.

نسألكم أيها الملحدون: هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت لكل إنسان، من مليارات البشر، رائحةً خاصة به، بحيث لا تشبه رائحة إنسان آخر؟!

ننتظر منكم جوابًا، فإن قلتم: نعم، الطبيعة هي التي جعلت لكل إنسان رائحة خاصة به. قلنا لكم: لماذا لا تتكلم الطبيعة وتعلن أنها هي التي فعلت ذلك؟!

لقد أثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وقد جعل سبحانه معرفة هذه الحقيقة كرامةً اختَصَّ بها نبيَّه يعقوب ﷺ؛ يقول الله تعالى:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف: ٩٤].

(كشاف الإعجاز العلمي لنبيل هارون صـ ٣١).

(٦) لكل إنسان بصمات أصابع خاصة به:

يا من تنكرون وجود الله تعالى وتصدّقون الاكتشافات العلمية، نقول لكم:

أثبت العلم الحديث عدم تشابُه بصمات إنسان مع بصمات إنسان آخر؛ ولذا فقد استخدمت الشرطة هذه البصمات في الكشف عن المجرمين.

(التبيان للصابوني صـ ١٣٣: ١٣٢).

نسألكم يا من تنكرون وجود الله تعالى:

هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت لكل إنسان، من مليارات البشر، بصمات لأصابعه خاصة به، بحيث لا تشبه بصمات إنسان آخر؟! لماذا لا تتكلم الطبيعة وتعلن أنها هي التي فعلت ذلك؟!

إن عدم تشابه بصمات إنسان مع بصمات إنسان آخر دليلٌ واضح لكلّ إنسان عاقل على وجود خالقٍ عظيمٍ لهذا الإنسان.

وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه العزيز:

﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ ﴾ [القيامة: ٤].

(٧) الحيوان المنوي الذي يتكون منه الإنسان:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: إنكم تصدّقون الاكتشافات العلمية، ولا شك في ذلك. فنقول - وبالله تعالى التوفيق -: اكتشَف الطب الحديث أن هذا السائل من منيّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمى (الحيوانات المنوية)، وهي لا ترى بالعين المجردة، إنما ترى بالمجهر، وكل حيوان منها له رأس ورقبة وذيل، يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تم اللقاح انطبق عنق الرحم فلم يدخل شيء بعده إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات فتموت.

(التبيان في علوم القرآن للصابوني صـ١٣٢).

نسأل الذين ينكرون وجود الله تعالى:

هل الطبيعة هي التي جعلت الحيوان المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم؟! لماذا لم تتكلم الطبيعة وتقُلْ: أنا التي فعلت ذلك؟!

إن وجود الحيوان المنوي، على هذه الصورة، لا يمكن أن يوجد صدفة، وإنما هو دليلٌ على وجود خالقٍ عظيمٍ قادرٍ على صُنع ذلك.

قال جل شأنه:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ﴾ [العلق: ١-٢].

وقال سبحانه:

﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩ ﴾ [الواقعة: ٥٨-٥٩]

قال الإمام القرطبي: قول الله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴾ أي: ما تصبُّونه من المنيّ في أرحام النساء،

﴿ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ ﴾ أي: تصوّرون منه الإنسان،

﴿ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴾المقدّرون المصوّرون.

(تفسير القرطبي جـ١٧ صـ٢١٦).

(٨) البعوضة:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى:

اكتشف العلماء أن البعوضة:

لها مائة عين في رأسها،

ولها في فمها ثمانٍ وأربعون سنَّة،

ولها ثلاثة قلوب في جوفها بكل أقسامها،

ولها ستة سكاكين في خرطومها، ولكل واحدة وظيفتها،

ولها ثلاثة أجنحة في كل طرف،

ومزودة بجهاز حراري يعمل مثل نظام الأشعة تحت الحمراء، وظيفته أن يعكس للبعوضة لون الجلد البشري في الظلمة إلى لون بنفسجي حتى تراه.

والبعوضة مزودة أيضًا بجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرز إبرتها دون أن يحس الإنسان، وما يحس به الإنسان كالقَرْصة هو نتيجة مص الدم منه.

والبعوضة مزودة أيضًا بجهاز تحليل دم؛ فهي لا تستسيغ كل الدماء، ومزودة بجهاز لتمييع الدم حتى يسري في خرطومها الدقيق جدًّا.

ومزودة بجهاز للشم تستطيع البعوضة من خلاله شم رائحة عرق الإنسان من مسافة تصل إلى كيلومتر.

(موسوعة الرد على الملحدين. الدكتور هيثم طلعت. جـ١ سرور صـ٦٠).

وهنا سؤال للملحدين الذين ينكرون وجود الله تعالى:

هل الطبيعة هي التي وضعت هذه الأجهزة داخل البعوضة؟!

فإذا أجبتم بـ: نعم، قلنا لكم: لماذا لم تخبرنا الطبيعة بذلك؟!

إن عقلاء العلماء يقولون:

إن وجود هذه الأجهزة بهذه الطريقة الدقيقة، داخل هذه الحشرة الصغيرة، دليلٌ واضحٌ على وجود خالقٍ، حكيمٍ عظيمٍ، لهذا الكون الكبير.

وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

(٩) الماء المالح لا يختلط بالماء العَذْب:

قال الله تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٣].

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: أنتم تصدقون الاكتشافات العلمية؟ سيقولون: نعم.

فنقول لهم: أثبت العلم الحديث استحالة اختلاط ماء البحر بماء النهر، وإلا كان ملحًا أُجاجًا؛ وذلك بفضل خاصية الانتشار الغشائي (الأسموزي)، التي تدفع جزيئات الماء العذب إلى الانتشار داخل الماء المالح، وليس العكس، عبر السطح الفاصل بينهما (الحاجز أو البرزخ).

وفي هذا الصدد أيضًا تجدر الإشارة إلى معجزة بقاء ماء البحار والمحيطات دون تجمُّد؛ إذ يطفو الثلج المتجمد فوقها ليحفظ بقية الماء من التجمد، ويحفظ حياة الأسماك والأحياء البحرية، ولتستمر الملاحة فيه، ويرجع ذلك لخاصيةٍ وهَبها الله الماء دون سائر المواد الأخرى، أن كثافته تقل (لا تزيد كغيره) بالتجمُّد؛ (كثافة الثلج أقل من كثافة الماء السائل).

(كشاف الإعجاز العلمي للدكتور/ نبيل هارون.صـ٦٣، صـ٦٤).

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: هل الطبيعة هي التي فعلت ذلك؟!

لماذا لم تتكلم الطبيعة وتقُلْ: أنا التي منعت اختلاط ماء البحر المالح بماء النهر العَذْب؟!

سبحان الله! هذا الاكتشاف العلمي دليلٌ على وجود إلهٍ عظيمٍ قديرٍ خلَق ذلك الكون بحكمة بالغة.

(١٠) عسل النحل:

قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]

النحل تتغذَّى على الأزهار، ويخرج من بطونها العسل، وهو فضلات النحلة، مثلها مثل الإنسان، تخرج الفضلات، وهذا العسل الذي يخرج من بطون النحل يعتبر طعامًا ودواءً شافيًا، وهو مختلف الألوان، منه الأبيض والأصفر، والأحمر والأسود، وغير ذلك، بإثباتات علمية باتفاق العلماء جميعهم.

نسأل الذين ينكرون وجود الله تعالى سؤالًا: هل الطبيعة هي التي فعلت ذلك؟ وإذا كانت الإجابة بـ: نعم، نقول: هل يمكن أن يشارك الإنسان النحل فيأكل نفس الأزهار لينتج العسل؟ هل الصدفة هي التي فعلت ذلك؟

العقل السليم لا بد أن يعترف بوجود إله عظيم خلق المصانع والمصافي في بطون النحل؛ ليخرج من بطونها العسل الشافي الصافي.

(١١) لبن الحيوانات:

قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [النحل: ٦٦] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ ﴾ أيها الناس

﴿ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ وهي: الإبل والبقر والغنم،

﴿ لَعِبْرَةً ﴾؛ أي: لآيةً ودلالةً على قدرة خالقها وحكمته ولُطفه ورحمته،

﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ ﴾ وأفرد ها هنا الضمير عَوْدًا على معنى النَّعَم، أو الضمير عائدٌ على الحيوان؛ فإن الأنعام حيواناتٌ؛ أي: نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان، وفي الآية الأخرى: ﴿ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا ﴾ [المؤمنون: ٢١] ويجوز هذا وهذا.

﴿ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ﴾ [النحل: ٦٦] ؛ أي: يتخلَّص الدمُ بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرثٍ ودمٍ في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته، تصرف منه دمٌ إلى العروق، ولبنٌ إلى الضرع، وبولٌ إلى المثانة، ورَوثٌ إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر لا يمازجُه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به.

﴿ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾؛ أي: لا يغَصُّ به أحدٌ.

(تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٥٨٠).

نسأل الذين ينكرون وجود الله تعالى:

مَن الذي خلق هذه المصفاة في بطون الإبل والأبقار والأغنام والماعز؟! هل هي الطبيعة أم الصدفة؟! ونحن نعلم أن الطبيعة لا ترى ولا تسمع ولا تنطق، وأنها ميتة، وإذا كانت غير ذلك لماذا لم تتكلم وتقُلْ: أنا خلقتُكم؟!

(١٢) سقف المنزل والأعمدة:

نقول للملحدين الذين ينكرون وجود الله تعالى:

أليس سقفُ المنزل يدل على وجود أعمدة أو قواعد في علم الهندسة المعمارية؟

سيقولون: نعم،

فنسألهم السؤال التالي: من الذي رفع السماء بدون أعمدة؟ هل الطبيعة أو الصدفة؟ ولماذا يُبنَى سقف المنزل بالأعمدة؟ أليس كما تقولون بالطبيعة أو الصدفة؟! إذا كان كذلك، يجب أن يكون السقف بلا أعمدة مثل السماء، أو تكون السماء بأعمدة مثل السقف، ولكن السماء بدون أعمدة.

فنقول للملحدين: الله تعالى هو الذي رفع السماء بقدرته من غير أعمدة، كما ترونها.

قال سبحانه:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾ [الرعد: ٢] .

(١٣) الكهرباء:

الكهرباء غير ملموسة ولا محسوسة، ولا يمكن رؤيتها، وضوء المصابيح يدل على وجود الكهرباء، وكل الأشياء التي تعمل بالكهرباء تدل عليها، وإذا لمسها الإنسان تعرَّض لصدمة كهربائية.

نسأل الذين ينكرون وجود الله تعالى:

أتؤمنون بوجود الكهرباء؟

سيقولون: نعم، مع أنهم لم يروا الكهرباء، ولكنهم شاهدوا آثارها أمام أعينهم.

فنقول لهم: اتفقنا نحن وأنتم على أن الأثَرَ يدل على المسير.

نقول لهم: أيها العقلاء، ألا يدل وجودُ السموات والأرض، وتتابُعُ الليل والنهار، ونزول المطر، والطيور التي تحلق بأجنحتها، والحيوانات التي تسير على الأرض، وهذه الجبال الرواسي، وغير ذلك من عجائب الكائنات - على وجود إلهٍ عظيمٍ قديرٍ قد خلق هذه الأشياء؟!

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]

(١٤) الطبيعة خالقة أم مخلوقة؟

نقول للملاحدة الذين يسندون وجود الأشياء إلى الطبيعة: هل هذه الطبيعة خالقة أم مخلوقة؟!

فإن قالوا: الطبيعة خالقةٌ للأشياء، نقول لهم:

لماذا لا تخلق هذه الطبيعة الآن جبالًا وأنهارًا وحدائق وكواكب جديدة؟! ولماذا لا تخلق هذه الطبيعة الآن للناس زرعًا عند حاجتهم إليه؟!

وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه العزيز:

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٥].

• قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: معناه: أخُلقوا من غير شيءٍ خلَقهم، فوُجدوا بلا خالقٍ؟ وذلك مما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلُّق الخَلق بالخالق من ضرورة الاسم، فإن أنكروا الخالق لم يجُزْ أن يوجدوا بلا خالقٍ.

﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور: ٣٥] لأنفسهم، وذلك في البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطَل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا، فليؤمنوا به.

(تفسير البغوي جـ٧ صـ٣٩٢).

(١٥) هل الكائنات هي التي أوجدت نفسها؟

سؤال مهم للذين ينكرون وجود الله تعالى: هل الكائنات هي التي أوجدت نفسها؟

فإن قال أحد الملحدين: نعم، الكائنات هي التي أوجدت نفسها.

قلنا: هذا مستحيلٌ عقلًا؛ لأن هذه الكائنات في أصلها كانت عدَمًا ثم أنشئت، فكيف تكون موجودة وهي معدومة؟ والمعدوم ليس بشيء، فهي لا يمكن أن توجد نفسها؛ لأنها في الأصل معدومة، والمعدوم لا يوجد نفسه، فكيف يوجد غيره؟

فإن قال أحد الملحدين: هذه الكائنات وجدت هكذا صدفة.

قلنا: هذا يستحيل عقلًا أيضًا، فهل ما أنتج من الطائرات والسفن العملاقة والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها وُجد صدفة؟

فلا بد أن يقول الملحد: لا يمكن أن يكون ذلك،

قلنا: وكذلك هذه الجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة كذلك، ولا يتصور أن هذا التقدم الحضاري الذي يمر به العالم الآن وُجد هكذا صدفة.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: وقيل: المعنى: وفي خلق أنفسكم من نطفةٍ وعلقةٍ ومضغةٍ ولحمٍ وعظمٍ إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبُك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خُصَّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتّيها لما خُلقت له، وما سوَّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنّي، وأنه إذا تيبَّس شيءٌ منها جاء العجز؛

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]

(تفسير القرطبي جـ١٧ صـ٣٩).

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله) - مخاطبًا كل إنسان -:

ارجع الآن إلى نفسك، وكرر النظر فيك؛ فهو يكفيك، وتأمَّل أعضاءك، وتقدير كل عضو منها للمنفعة والأرب المهيأ لها.

فاليدان للعلاج والبطش، والأخذ والإعطاء، والمحاربة والدفع.

والرّجلان لحمل البدن، والسعي والركوب، وانتصاف القامة.

والعينان للاهتداء والجمال، والزينة والملاحة، ورؤية ما في السموات والأرض وآياتهما وعجائبهما.

والفم للغذاء والكلام والجمال، وغير ذلك.

والأنف للتَّنَفس وإخراج فضلات الدماغ، وزينة للوجه، واللسان للبيان والترجمة عنك.

والأذنان صاحبتا الأخبار، تؤديانها إليك.

واللسان يبلّغ عنك.

والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء، فتُنضجه وتطبخه، وتصلحه إصلاحًا آخرَ وطبخًا آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج، فأنت تعاني إنضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل، وأنه قد استغنى عن طبخٍ آخر وإنضاجٍ آخر، وطبَّاخه الداخل ومُنضجه يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي إليه، ولا تقدر عليه؛ فهو يوقد عليه نيرانًا تُذيب الحصى، وتذيب ما لا تذيبه النار، وهي في ألطف موضع منك، لا تحرقك ولا تلتهب، وهي أشد حرارة

من النار، وإلا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدًّا حتى يجعلها ماءً ذائبًا.

وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء وألطفه، ثم رتب منها مجاريَ وطرقًا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظُفر.

وجعل المنازل والأبواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك.

وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك؛ فهذه خزانة للطعام، وهذه خزانة للحرارة، وهذه خزائن للدم، وجعل منها خزائن مؤديات؛ لئلا تختلط بالخزائن الأخر، فجعل خزائن للمرة السوداء، وأخرى للمرة الصفراء، وأخرى للبول، وأخرى للمني؟! فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسري منها في البدن! فإنه إذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت، فتطبخه وتجيد صنعته، ثم تبعثه إلى الكبد في مجارٍ دقاقٍ.

وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجاري غشاءً رقيقًا كالمصفاة الضيقة الثقوب، تصفيه، فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها؛ لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ، فإذا قبلته الكبد أنفذته إلى البدن كله في مجارٍ مهيأة له بمنزلة المجاري المعدة للماء ليسلك في الأرض، فيعمها بالسقي، ثم يبعث ما بقي من الخبث والفضول إلى مصارف قد أعدت لها، فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة، وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال، وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة.

فمن ذا الذي تولَّى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير؟! إنه الله تعالى أحسن الخالقين.

(مفتاح دار السعادة .لابن القيم جـ١ صـ٢٩٨).

قال أحد الشعراء:

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرةْ
كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرةْ
فانظر وقل من ذا الذي يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذي أنعُمُه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة
انظر إلى الشمس التي جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذا الذي أوجدها في الجوّ مثل الشَّرَرة
ذاك هو الله الذي أنعُمُه منهمرة

(أبيات مختارة. عبدالله البصيري صـ٣٥).

* فكيف لا أحبه وهو الذي خلقني فأحسن خلقي وصورني فأحسن صورتي؟ كيف لا أحبه وهو الذي ينعم عليّ بالطعام والشراب وإذا مرضت يشفيني ويعافيني؟ كيف لا أحبه وإذا أذنبت يغفر لي ويسترني؟

قولوا: اللهم ارزقنا حبك وحب من أحبك.

الباب الثالث

لا تستهن بأي إنسان فربما يأتي يوم يكون فيه لك نجاة.. سبحان مغير الأحوال من حال إلى حال.

ولا تنظر بعين حاسد لمنصب أو أموال. فأنت لا تعرف ما كلفته الحياة من تعب واجتهاد..

وانظر إلى رب العزة.. تسعد في الأرض والسماء.

ولا تنسَ في دعائك: اللهم يا مغير الأحوال غير حالنا إلى أحسن حال..

قد نرى غنيًّا يستهين بفقير وإن كانت الاستهانة بكلمة. وقد صدق من قال: إني لأتعجب كيف يستهين البعض ولو بكلمةٍ وقد بلغ من أمرها ما بلغ، إنها لتؤرق مضجعا وتعكر مزاجا وتبدل حالا وتريق دمعا وتوحش أنسا وتميت شعورًا وتورث ضغينة وتفزع سكينة. ثم يأتي بما قد لا تقدر حوادث الأيام وخطوب الزمان على المجيء بمثله.

كما نرى متعلما يستهين بجاهل وينظر له نظرة احتقار. ربما الله يغير الأحوال من حال إلى حال.

أو ربما كان الغني خلق فقيرًا والفقير خلق غنيًّا. فهي أقدار اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يقسم الأرزاق درجات لتسير حركة الكون.

عن أبي هريرة قال: قال رسول ﷺ [ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس]

(أخرجه البخاري).

فإن المدار كله على ما في القلوب من الأوصاف الدنيئة أو الطيبة. فمن كان قلبه غنيًّا بالله فهو الغني الحقيقي ولو كان فقيرًا. ومن كان قلبه فقيرًا إلى دنياه وإلى الخلق فهو الفقير الحقيقي ولو كان ثريا.

قال القرطبي: المرء إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت، وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير وأذل من كل ذليل، كما أن الحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعا بما قسم الله له لا يحرص على الازدياد لغير حاجة ولا يلح في الطلب بل يرضى بما قسم له فكأنه واجد أبدًا. والمتصف بفقر النفس على الضد منه.

غنى النفس لا ينشأ إلا عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره. علمًا يقينيًّا بأن الذي عند الله سبحانه وتعالى خير وأبقي.

والفقر والغنى ابتلاء من الله سبحانه يختبر بهما عباده في الشكر والصبر قال ﷻ

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ [الكهف: ٧] .

وقال سبحانه

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥ ﴾ [الأنبياء: ٣٥] .

ما الدنيا إلا دار ابتلاء واختبار ومن ثمّ جعل فيها يتقلب العبد ما بين الرخاء والمكروه وما بين الخير والشر لكي يختبر سبحانه وتعالى العباد كيف يطلبون مراضيه في شيء.

إذا تأملنا في الفتن نجد فيها من المنافع والخير التي لا نعلمها.

فإن ابتلاء المؤمن كالدواء يزول به ما بقي من داء ليعلو المنزل ويكتمل الأجر. فهذا الابتلاء أو الامتحان عافية المؤمن.

عن صهيب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ

[والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له]

(رواه مسلم وغيره)

يبتلي الله ﷻ المرء على حسب قوة إيمانه، فإن كان قوي الإيمان شدد عليه البلاء. وإن كان ضعيف الإيمان خفف عنه ولا يزال البلاء قائمًا بالمؤمن إلى أن تُمحى ذنوبه وخطيئته.

كما أن من سنة الله في الابتلاء أنه يمتحن عباده بالشر والخير أي يختبرهم بما يصيبهم من فقر أو مرض أو فقدان عزيز لديه.. الخ

لم يكن الاختبار أو الامتحان بالمصائب فحسب بل يختبرهم بما ينعم عليهم النعمة التي تجعل حياتهم في رخاء ورفاهية. ينعم عليهم بالغنى والصحة في آن واحد ليختبر من يصبر أمام تلك الإغراءات ولمن يشكر في المصائب وفي الرخاء. ثم يجزيهم حسب الصبر أو الشكر.

لمن صبر في الضراء وشكر في الرخاء.

فإن المحنة مقتضية للصبر والمحنة أيضًا مقتضية للشكر. ونقر هنا أن المحنة أعظم البلاء لما فيها من إغراءات تبعده عن الطاعة.

قال عمر ﷺ: بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر.

أما ابتلاء الفقر فهو يأتي من الشدائد وما يشق على أنفسهم من نقص من الأموال من خوف وجوع ومصيبة.

قال جل شأنه:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

أي يبتلي عباده بالمحن ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر. فإن الله سبحانه وتعالى يختبر عباده تارة بالسراء وتارة بالضراء.

الله ﷻ لا يبتلي عباده إلا لمحبته لهم وليس لكرههم. لذلك كان ابتلاء الله لعباده بشيء من الخوف والجوع كما جاء في الآية الكريمة أي بشيء قليل لأنه لو ابتلاهم بكل الخوف أو كل الجوع لهلكوا وتلك من رحمته للعباد.

كما جاء في الآية الكريمة أيضًا من ابتلاء ينقص من الأموال أي ذهاب بعض من أموالهم.

ومن صور الابتلاء الأنفس. موت الأولاد والأحباب من الأقارب والأصحاب. ومن ثمّ فإن الأمراض والثمرات من الابتلاءات.

ثم ذكر من وفقه الله للصبر على المصائب والمحن بأن احتسب أجرها عند الله وأيقن أن أجره بصبره أعظم. بشرهم الله بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب الذين قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون. أي مملوكون لله فلا اعتراض عليه بل هو أرحم بعبده من نفسه. لهذا جاء الشكر على تدبيره لما هو خير لعبده أولئك هم المهتدون الذي عرفوا الحق وأنهم إليه راجعون كما دلت الآية الكريمة.

ثم نعود لمن يستهين بشخص ضعيف أو فقير فربما يأتي يوم يكون فيه لك نجاة. غير أن الاستهانة من أسوأ المشاعر التي تسيء ولا يتحملها أي شخص. فإن أفضل الناس من تواضع عن رفعة وعفا عن قدرة وأنصف عن قوة.

أما الفقير الذي ينظر بعين حاسدة إلى غيره فهو لا يدرك مدى التعب والاجتهاد الذي نال الغنيَّ في الحياة.

فلا بد من إعادة صياغة وتصحيح أفكارنا ومفاهيمنا؛ فإن واقعنا من ذلك الذي نشكو منه جميعًا وهو حصيلة الانحراف الذي أصاب مفاهيمنا وأفكارنا نتج عنه البعد عن منهج الله سبحانه وتعالى، السعادة هي القرب من الله والسير على منهاجه لكي تسعد في الدنيا والآخرة.

فإن كنت تبحث عن المساواة والسعادة فتفقه في الدين أو راقب الله في أفعالك أو اذهب إلى القبور فإن من أحسن في حياته أحسن لآخرته.

نذكر قضية مهمة للغاية بالتأكيد. لا شك في تغيير الله سبحانه وتعالى الأحوال فهو القادر على تغيير الحال من حال إلى حال، ومن الأمثلة الحية في ذلك والملموسة في واقعنا ما في عصرنا الحالي والحاضر وشهدناه من ثورات

الربيع العربي التي اندلعت مؤخرًا. والتي أزاحت رؤساء بعدما كانوا يملكون السلطة والنفوذ والغنى كالرئيس السابق محمد حسني مبارك، الذي ولد في مايو ١٩٢٨في قرية كفر المصيلحة. محافظة المنوفية، وهو يعد الرئيس الرابع لجمهورية مصر العربية. تولى الرئيس مبارك الحكم في ١٤ أكتوبر عام ١٩٨١ حتى ١١ فبراير عام ٢٠١١ امتدت فترة ولايته لمصر ثلاثة عقود. قرابة ثلاثين سنة. لك أن تتخيل أن رئيسا بهذا الحجم وبمدة ولايته تلك. عندما كان يقوم بزيارة مكان ما وليكن مجمع السجون فترى مدى الاستعدادات لاستقباله ومدى التجهيزات للظهور بشكل مشرف من قبل إدارة السجن. فتجري الاستعدادات على قدم وساق من أصغر جندي إلى أعلى منصب وترتجف الأجساد لحظة رؤيته وفور وصوله. وتزداد نبضات القلب. سرعان ما يمكث سيادة الرئيس في إحدى زنازين السجن سجينًا بعدما كانت تهتز له أركان السجن بأكمله، فسبحان الله مغير الأحوال من حال إلى حال.

فينبغي لنا أن نتعظ من تلك الأحداث المثيرة وغيرها. فهي لا تقع صدفة، لذا علينا أن نسأل أنفسنا ما هي البصيرة من وراء ذلك؟ وما هي العبرة؟ فإن تلك الأحداث المثيرة التي بالتأكيد شعرنا بها والتي تغيرت من حال إلى حال آخر في لحظة بغتة لم تكن في أذهاننا وسرعان ما تبدل الحال من النقيض إلى النقيض، فهي آيات من الله ﷻ نشاهدها أمام أعيننا تؤكد لنا قدرة الله سبحانه وتعالى على كل شيء وتبث بداخلنا الأمل وتجعلنا لا نيأس مهما بلغ الأمر مبلغه من صعوبات وأمراض وآلام مهما كان. وألا نقطع الحبل مع الله.

لأن الله قادر على أن يغير الأحوال من حال إلى حال فلا تخنك قدراتك العقلية الضعيفة في أمنية تدعو بها الله بأنه يصعب تحقيقها. بل هي على الله

هينة ما دمت خالصًا في دعائك وعلى يقين بأن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماوات لكمال قدرته.

هو القائل في كتابه الكريم

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤٤] .

تبث بداخلنا الطمأنينة والأمل.

أما الشيء المهم في كل ذلك فأن نتضرع إلى الله ﷻ ونعود إلى رشدنا وإلى أنفسنا لكي ندرك أين الخطأ في سلوكنا وفكرنا.

أولم يأمرنا الله ﷻ بأن ننظر كيف كان عاقبة الذين كانت لهم القوة والذين كذبوا بمحمد ﷺ .

قال جلا وعلا:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر: ٤٤]

جاء في تفسير ابن كثير في هذه الآية الكريمة: قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة: سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فخلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد القوة وكثرة العدد وكثرة الأموال والأولاد، فما أغنى ذلك شيئا، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك لأنه

تعالى لا يعجزه شيء، إذا أراد كونه في السماوات والأرض لأنه تعالي لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض.

فهذه إرادة الله في ملكه فلا يتحكم في ملكه أحد كما قال الإمام محمد متولي الشعراوى: لا يحكم أحد في ملك الله إلا بقدر الله. كما أن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء هو القائل في كتابه العزيز:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

[آل عمران: ٢٦].

أي الله سبحانه وتعالى له الملك وحده هو المعطي وهو المانع وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

كما نجد في هذا السياق على الصعيد العربي صاحب أطول فترة حكم، في ليبيا معمر القذافي الذي حكم ليبيا أكثر من ٤٢ سنة إلى أن أطيح بنظامه ومقتله في ٢٠ تشرين الأول، أكتوبر ٢٠١١

وصل معمر القذافي إلى السلطة بانقلاب عسكري خلع به الملك إدريس ملك المملكة الليبية عام ١٩٦٩.

وكما حدث فى دولة تونس وتنحى الرئيس زين العابدين بن على عن السلطة وغادر البلاد يوم ١٤ يناير ٢٠١١ وهو الرئيس الثاني لتونس منذ استقلالها عن فرنسا عام ١٩٥٦وتم خلعه من منصبه إثر احتجاجات شعبية ضد نظامه القمعي.

وجاء حديثًا الرئيس السوداني عمر البشير. تعد فترة حكمه الأطول في تاريخ السودان. أطيح به في أبريل من عام ٢٠١٩، ويذكر أنه وصل إلى السلطة

بانقلاب عسكري وتولى رئيس مجلس قيادة ثورة الإنقاذ الوطني في ٣٠ يونيو ١٩٨٩.

كما جاء عالميًّا دولة تشيلي متمثلة في أوغستو بينوشية أوغارتا، امتدت فترة حكمه من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٩٠.

نيكولاي تشاوتشيسكو وهو سياسي روماني راحل. حكم رومانيا خلال ٢٤ عامًا من ١٩٦٥ حتى عام ١٩٨٩ وهو الزعيم الشيوعي الثاني والأخير للبلاد.

الرئيس الأندونيسي. سوهارتو. والذي حكم إندونيسيا ١٣ عامًا بعد عزل أحمد سوكارنو عام ١٩٦٧

نستنتج من خلال هذه الأمثلة أنه مهما بلغت قوتك وسلطانك فلا تغتر بنفسك ومن ثمّ لا تستهن بأي إنسان. فكل شيء زائل حتما في هذه الحياة. كما قال الشاعر:

لدوا للموت وابنوا للخراب.. . فكلكم يصير إلى تباب

لمن نبني ونحن إلى تراب.. . نصيركما خلقنا من تراب

ثم ندعوك أخي القارئ الكريم إلى أن تدرك قدرة الله في الكون عن قوة وعلم وحكمة. ثق جيدًا بأن الله قادر على تغيير الحال. فسبحانه مغير الأحوال من حال إلى حال ومن ثمّ نأخذ من هذا الشأن موعظة.

قال جل شأنه: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

إذا أمعنّا النظر في القوم السابقين الذين استكبروا وطغوا وعصوا وغرتهم الأموال وجعلتهم ينظرون إلى الناس من حولهم بعين الازدراء والاحتقار مثل قارون وفرعون وهامان.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٩-٤٠] .

إذا تأملنا جيدًا في الأقوام القديمة والحديثة فستبرز لنا الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى له الملك وهو على كل شيء قدير. وهو وحده الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء. هو الذي ينزعه ممن يشاء وهو الذي يؤتي من يشاء.

قال جل وعلا:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

[آل عمران: ٢٦]

الباب الرابع

حياتك صفحة بيضاء اكتب فيها كما تشاء..

فإذا أردت أن تظل بيضاء.. . فداوم على الاستغفار

وغلفها بالعزيمة والإصرار.. . وزينها بحب النبي المختار

واحفظها في صندوق بر الوالدين.. . وأقفل عليها بمفتاح التوحيد تكن سعيدًا.

لا شك أن لكل إنسان سجلًّا تُسجل فيه حسناته وسيئاته. كل كبيرة وصغيرة. قال الله تبارك وتعالى

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩] .

ومن فضل الله تعالى على المسلم أن جعل الاستغفار والتوبة يمحو الله بهما الذنوب.

عن ابو مسعود قال: قال رسول الله ﷺ [من قال أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه. غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف]

رواه أبو داود والترمذي والحاكم وقال حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم.

وعلى هذا الصعيد نضرب مثالاً ومن ثمّ نناقش ما سنطرحه.

نرى الطفل بداية رحلته مع التعليم المدرسي إذ بك تعلمه الكتابة في بداية أول خطوات التعليم فيلزم عليك أولا مراعاة تعليمه الأساسيات وهي أن

ننبه عليه في الحرص، وأن ينبغي وجود الممحاة في حقيبته بشكل دائم وهي من تلك الأدوات الأساسية لأنك بالتأكيد تعلم أنه سوف يخطئ في تعلمه الكتابة لذا يحتاج عند ذلك الممحاة لمحو الأخطاء وإعادة تصحيحها لتظل كراسته نظيفة خالية من الأخطاء.

هكذا يكون الاستغفار كالممحاة ومصفاة تمحو الذنوب، وتحافظ على السجل ليبقى نظيفا ويظل أبيض، فمن لزم الاستغفار تائبًا نادمًا مقنعًا صادقًا جعل الله له مغفرة، ومن كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب.

قال الله تعالى في محكم آياته:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦] .

كما نناشد الطفل في التفنن والحرص على تغليف الكراس حفاظًا من تلفها وتمزقها دون أي أضرار تلحقها. إن هذا المجهود يقتضي الطموح والجهد، يلزم التمسك بالعزيمة والإصرار وصبر منقطع النظير، تكيح جماح الأهواء والشهوات الثائرة وقهر النفس على ما لا يلائمها. والصبر على طاعة الله وعن معاصيه، ودوام التوبة والاستغفار، والعزم الجازم على الإخلاص لله ودوام الاتصال به.

ثم نجد الطفل من عادته يلجأ في تزيين كراسته بالأشياء التي يحبها لتبدو أجمل عند رؤيتها مما يجعله يحب التطلع إليها دومًا فتنشرح أساريره لتحفزه على مواصلة التعلم، فثمرة محبة النبي الكريم ﷺ حبا صادقًا مخلصًا تزين به سجلك لمكانته العظيمة ودرجته العالية ومنزلته الرفيعة.

ومن فضل محبة رسول الله ﷺ هي من أسباب استجابة الدعاء بالصلاة عليه، وهي من السنة للداعي أن يبدأ بحمد الله والثناء عليه وتمجيده ثم يصلى على النبي ﷺ، ثم يدعو بما يشاء وبما أحب من الدعاء ثم يختم بالصلاة على النبي الكريم وبذلك جعلتَ الدعاء بين الصلاة على النبي ومن ثمّ زينت دعاءك بالصلاة على رسول الله كما تزين السجل.

انظر مدى فضل الصلاة على سيدنا ورسولنا محمد ﷺ، عن أبي بن كعب ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاء ربع الليل قام فقال: أيها الناس اذكروا الله، أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه. فقال أبي بن كعب: فقلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فما أجعل لك من صلاتي؟ قال: ما شئت قلت: الربع؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير. قلت: النصف؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير لك. قلت: الثلثين؟ قال: ما شئت وإن زدت فهو خير. قلت: أجعل لك صلاتي كلها قال: إذا يكفى همك ويغفر ذنبك.

رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه قال الترمذي حديث حسن صحيح

ثم نرى من فطرة الإنسان الطبيعية عندما يملك شيئا ثمينا يلجأ بالبحث عن مكان آمن ليحفظه به لقيمته النادرة ولخوفه الشديد ثم يبحث

عن صندوق يليق بقيمته فلا يجد سوى صندوق بر الوالدين. فهو يدرك جيدًا فضل بر الوالدين الذي يعد من أعظم العبادات والواجبات، ومما يدل على عظمته بأن جعله سبحانه وتعالى بعد التوحيد، وأمر الله ﷻ ببر الوالدين وهي من أهم الفرائض في قوله سبحانه وتعالى

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤]

فإن من أعظم الأعمال لدى المسلم بر الوالدين قال جل شأنه:

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦]

كما حس وبين لنا رسول الله ﷺ فضل بر الوالدين، وأن من أكبر الكبائر العقوق للوالدين. ففي الصحيحين عن أبي بَكْرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟" ثلاثا قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، – وجلس وكان متكئا- ألا وقول الزور"، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت]. متفق عليه.

فلا شك أن بر الوالدين أقرب طريق إلى الجنة، قال عبد الله بن مسعود ﷺ سألت رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة

على ميقاتها. قلت: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله. فَسَكَتّ عن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادني.

رواه البخاري ومسلم.

كما جاء فضل بر الوالدين في كتاب الله وسنة نبيه الكثير يدل على عظمة بر الوالدين، ويعد من أكبر الكبائر العقوق للوالدين.

فإذا كنت تريد أن تعرف مدى عطاء الأم لك فانظر إلى عطاء زوجتك لأبنائك.

وإذا كنت تريد أن تعرف مدى تضحية الأب لك فانظر إلى تضحيتك من أجل أبنائك وربما هما الأكثر وفي ظروف أصعب.

وإذا كنت تريد أن تعرف هل يوجد عمل يؤدي حقهم فتأمل في قصة الرجل الذي أتى إلى سيدنا عمر ﷺ حينما قال: إن لي أمًّا كبيرة لا تقضي حوائجها إلا ويكون ظهري منحنيًا لها. أحملها على ظهري وأصرف وجهي عنها فهل أديت حقها؟ فقال له عمر ﷺ: لا إنها كانت تصنع ذلك لك وهي تتمنى بقاءك، وأنت تصنعه وتتمنى فراقها.

كما أن بر الوالدين مقدم على الجهاد في سبيل الله، عن عبدالله بن عمرو ﷺ قال:

"جاءَ رجلٌ إلى نبيّ الله فاستأذَنَهُ في الجهاد فقالَ: أحيٌّ والداكَ؟

قال: نعَم قال: ففيهما فجاهدْ

وقال: أقبلَ رجلٌ إلى رسول الله فقالَ: أبايعُكَ على الهجرَة والجهاد أبتَغي الأجرَ منَ الله

قال: فَهلْ من والدَيكَ أحدٌ حيٌّ؟

قالَ: نعَم بل كلاهُما حيٌّ

قال: أفتَبتَغي الأجرَ منَ الله؟

قالَ: نعَم

قال: فارجعْ إلى والدَيكَ فأحسنْ صُحبَتَهُما ".

(صححه الألباني).

إن الجهاد في الوالدين بصحبتهما والقيام على خدمتهما، وأن يخاطب والديه بلطف وأدب. وأن لا يرفع صوته عليهما ولا يقاطع حديثهما.. الخ.

إن مكانة الوالدين عند الله ورسوله لمكانه عظيمة

قال الله تعالى:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣] فما أعظم من ذلك.

_ أيها الأبناء اعرفوا قدر آبائكم وهم على قيد الحياة وأحسنوا إليهم. حتى لو بلغوا المئة عام، فطالما الوالدان على ظهر الأرض أحياء، بصحتهما أو بقوتهما. أو بضعفهما. أو بغناهما. أو بفقرهما. أو بشيخوختهما سيبقى هما السند والملجأ ومصدر الطاقة والأمن، فهنيئا لمن كان لوالديه مُرْضٍ..

الوالدان كالروح فإن كانت الروح في الجسد فهو باقٍ.. وإن نزعت الروح من الجسد فهو فانٍ..

واعلم أن صندوق بر الوالدين، لا بد له من مفتاح، ومفتاحه هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا ﷺ عبده ورسوله.

قال ابن القيم الجوزية في كتاب "حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح":

ولقد جعل الله لكل مطلوب مفتاحًا يفتح به، فجعل مفتاح الصلاة الطهارة، كما قال ﷺ: (مفتاح الصلاة الطهور)، ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدق، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال، وحسن الإصغاء، ومفتاح النصر والظفر الصبر، ومفتاح المزيد الشكر، ومفتاح الولاية المحبة، ومفتاح المحبة الذكر، ومفتاح الفلاح التقوى، ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة، ومفتاح الإجابة الدعاء، ومفتاح الإيمان التفكر فيما دعا الله عباده إلى التفكر فيه، ومفتاح الدخول على الله سلامة القلب، وسلامته له والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك، ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن، والتضرع بالأسحار، وترك الذنوب والأوزار، ومفتاح حصول الرحمة.

الإحساس في عبادة الخالق والسعي في نفع عبيده، ومفتاح حصول الرزق السعي مع الاستغفار والتقوى، ومفتاح العز طاعة الله ورسوله، ومفتاح

الاستعداد للآخرة قصر الأمل، ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل، وهذا باب عظيم من أنفع أبواب العلم لمعرفة مفاتيح الخير والشر، فإن الله جعل للخير وللشر مفتاحًا وبابًا يدخل فيه إليه، كما جعل الشرك والكبر والإعراض عما بعث الله به رسوله والغفلة عن ذكره والقيام بحقه مفتاحًا للنار، والخمر مفتاح كل إثم، والغناء مفتاح الزنا، وإطلاق النظرة في الصور مفتاح الطلب، والعشق والكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان، والمعاصي مفتاح الكفر، والكذب

مفتاح النفاق، والشح والحرص مفتاح البخل، وقطيعة الرحم وأخذ المال من غير حله والإعراض عما جاء به الرسول مفتاح كل بدعة وضلالة، فسبحان مسبب الأسباب، فمن قال لا إله إلا الله، صادقًا من قلبه مخلصًا لله وحده وعمل مما أنزله الله والتمسك بأوامره ومنهاجه بأن افعل ولا تفعل وترك ما حرم الله ثم مات على ذلك دخل الجنة.

كما قال رسول الله ﷺ

[من قال لا إله إلا الله صادقًا من قلبه دخل الجنة]

الباب الخامس

منافسة بين غني وفقير صالحين

الغني.. أنا الذي أذهب إلى عملي بالسيارة وأعود بالسيارة دون تعب ولله شاكرٌ.

الفقير.. أنا الذي أذهب إلى عملي ماشيا وأعود ماشيا متعبا وعند نومي يغفر الله ذنوبي كلها.

_ أنا الذي أمتلك المال، أنفق في سبيل الله ولم أترك بابا فيه الخير إلا أنفقت فيه..

_ أنا الذي أعطاني ربي النية الصادقة أن لو لي مثلك أنفق في سبيل الله فجزاني ربي مثل أجرك دون تعب أو إنفاق.

_ أنا الذي أصلي وأصوم وإلي بيت الله أحج.

_ أنا الذي أصلي وأصوم ولم أستطع الحج إليه سبيلًا فسقط عني وتقبل الله مني خيرًا من الذي حج ولم يتقبل الله منه.

_ أنا الذي متنعما في الدنيا، وفي الآخرة في الجنة متنعما.

_ أنا الذي شقيت في الدنيا سبعين عامًا فصبرت وإلى أعلى علو درجات الجنة سابقًا، أدخلها قبلك بخمسمائة سنة متنعما فيها قبلك وعند أول غمسة في الجنة لم أذق شقاء قط.

_ يا ليتني كنت مكانك.

ما أجمل المنافسة في طاعة الله وفي الخيرات. كما قال رسول الله ﷺ :

" لا تنافس بينكم إلا في اثنين: رجل أعطاه الله قرآنا فهو يقوم به آناء الليل والنهار أو يتبع ما فيه، فيقول رجل: لو أن الله أعطاني ما أعطى فلانا فأقوم به كما يقوم به ورجل أعطاه الله مالا فهو ينفق ويتصدق يقول رجل مثل ذلك ".

وهذا دلل على: لا ينبغي أن نطمع إليه النفوس. وإنما ينبغي على الإنسان الذي أوتي المال وأنفقه في وجوه البر والمعروف وفي سبيل الله.

بخلاف من أنفقه في الفساد والشر أو على شهواته، كما على الإنسان الذي لم يؤتَ المال فيتمنى لو أعطاه الله مثل ما أعطي فلانا فيعمل مثله وهذا المقصود به (الغبطة) وهي تمني النعمة. غير الحسد الذي فيه تمني زوال النعمة.

ومن ثمّ أن المنافسة والتسارع في الخيرات وفي طاعة الله يريدون الجنة ويبحثون عن السعادة الحقيقية في مرضات الله. وهذه أعلى وأعظم بأن يتنافس عليها المتنافسون، ومطلب يستحق المنافسة ويستحق السباق.

كما من فضل المنافسة والذين يسارعون في الخيرات في استجابة دعائهم وفيه. وهم لهم الولد وإصلاح زوجه.

كما أخبر الله جل ثناؤه

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] .

فإن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاء سيدنا زكريا عليه السلام فوهب له سيدنا يحيى عليه السلام ولدا ووارثا يرثه وأصلحنا له زوجه، لأنهم كانوا يسارعون في الخيرات وفي طاعة الله والعمل بما يقربهم إليه. لأنهم كانوا يعبدون الله رغبا ورهبا أي يعبدونه رغبة منهم فيما يرجون منه من رحمته وفضله.

﴿ وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] يعني رهبة من عذابه وعقابه.

﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ أي كانوا متواضعين متذللين لله ولا يستكبرون.

من خلال المناقشة تلك بين الغني والفقير في طاعة الله ومرضاته. نستنتج أن لا فرق بين غني أو فقير، ولا فرق بين عربي ولا أعجمي، ولا فرق بين الجنس ونوعه ولا فرق بين أبيض أو أسود إلا بالتقوى. تلك هي الديمقراطية الحقيقية وقاعدة بناء نشأت من قبل مئات السنين. قبل أن تولد الدولة الديمقراطية التي لا تعرف معنى الديمقراطية، ها هو الدين الإسلامي وها هو إله المسلمين حيث قال عز وجل في كتابه المتعبد بتلاوته:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

أي جعلناكم متناسبين. فبعضكم يناسب بعضًا نسبًا بعيدًا. وبعضكم يناسب بعضًا نسبًا قريبًا. وجعلكم شعوبًا ليعرف بعضكم بعضًا في النسب .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات: ١٣] أي أشدكم اتقاء له واتباعا بأداء فرائضه واجتناب معاصيه وليس لأكثركم غنًى أو أعلاكم منصبًا.

لا ينظر الله سبحانه وتعالى إلى أجسامنا أو صورنا وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا مصداقا لقول رسول الله ﷺ عن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ [إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم] رواه مسلم.

أي أن المعيار عند الله والتقرب إليه ليس بالصور والأشكال والكمالات الجسمانية ولكن ينظر إلى القلوب التي يملؤها الإيمان بالله. والأعمال الصالحة والنية الصادقة، التي امتلأت سكينة وأمنا. عكس المنافقين فقد تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن صورها. وإذا يتكلموا تسمع كلامهم لبلاغتهم وفصاحة ألسنتهم، ليس في قلوبهم؛ لهذا قال جل ذكره في كتابه الكريم:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤] .

كما أن الله خلقنا درجات ورفع بعضكم فوق بعض درجات، بالمال والجاه والعقل والذكاء والعلم لحكمة. لكي تسير حركة الحياة وليس للتعالي والغطرسة والتكبر.

قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

[الأنعام: ١٦٥]

فمن خلق الغني غنيًّا قادر على أن يجعله فقيرًا. ومن خلق الفقير قادر على أن يجعله غنيًّا.

فكلاهما تفضيل في هذه الدنيا لأسباب وحكم يعلمها الله تعالى.

وكلاهما يحتاج إلى صبر وإيمان أولًا لأن الحياة قائمة على الامتحان. فالصبر على إغراءات المال الذي يقود مالكها إلى معصية الله من مقاومة إغراءات الشهوات من شهوة النساء وشهوة الشهرة، يلزم على مالكها التحلي بالصبر ويحذر من الابتلاءات التي تعترض طريقه بالصبر لتكون سدا منيعا أمام الإغراءات، ومن ثمّ يجعل من أمواله قوة تعينه على طاعة الله. فإن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف. الذي يتميز بقوة إرادة وقوة علمه وقلبه المطمئن.

كما قال الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ قال. قال رسول الله ﷺ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإنّ لو تفتح عمل الشيطان] رواه مسلم

إننا ندرك وجود حكم عظيمة للغاية في التغيير الذي ينقل الإنسان من حال إلى حال، من غنى إلى فقر أو من صحيح إلى مريض فهذاابتلاء واختبار من الله سبحانه وتعالى.

هل العبد يصبر عند البأساء ويشكر عند السراء. فمن ينجح في الاختبار فقد فاز. لهذا قال رسول الله ﷺ [عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس

ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له]

رواه مسلم.

لأن العبد يظل قلبه معلقًا بالله ﷻ مدركًا أن ما هو فيه من الغنى أو الفقر إنما هو رزق من عند الله، وأن يدرك أن الله قادر، قد يغير الحال. فكم من فقير أمسى غنيًّا وكم من مريض أضحى صحيحًا.

كن على يقين بإن الله لم يظلم أحدًا وتأكد أنه ما حرمك من شيء إلا ليعوضك بأحسن منه وما يدفع من بلاء ونقم. أجل وأعظم، وما نزل من بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة

قال جلا شأنه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤]

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٩] .

بل الله يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب. ولا يعطي الآخرة إلا لمن يحب. فمن أعطاه الله المال واستعان به على طاعة الله وأنفق في الخيرات المقربة إلى الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، كما أعطى الفقير بصدق نيته أن لو كان يملك أموالا مثل الغني لتصدق وأنفق في الخيرات. فأعطاه الله أجرا مثل أجر الغني.

وعن أبي هريرة ﷺ أن فقراء المهاجرين أتوا رَسُول اللَّه ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: (وما ذاك؟) فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون

ولا نعتق. فقال رَسُول اللَّه ﷺ: (أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم) قالوا: بلى يا رَسُول اللَّه. قال: (تسبحون، وتحمدون وتكبرون، دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة) فرجع فقراء المهاجرين إلى رَسُول اللَّه ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله. فقال رَسُول اللَّه ﷺ: (ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء)

متفق عليه. وهذا لفظ مسلم.

فإن من العباد منهم لا يصلح إيمانه إلا الغنى، وإن من العباد لا يصلح إيمانه إلا الفقر، تلك عظمة الله وحكمته في العباد لا يعلمها إلا الله عز وجل، وهؤلاء الذين يبحثون عن التنافس في طاعة الله ويحرصون عن السعادة الحقيقية والظفر بالجنة، هم الذين آمنوا بالله إيمانًا صادقًا وأخلصوا العمل له واستقاموا على منهاج الله، لذا قال جلا وعلا:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ ﴾

[فصلت: ٣٠-٣١] .

ليس شرطًا أن الغني إذا استطاع الحج أن يقبل الله منه. ربما يكون غنيًّا عاصيا ودخل أمواله حرام، أما الفقير طائع الذي لا يستطيع الحج فلا إثم عليه.

حين نجد أن عبدا غنيا طائعا لله ﷻ في الدنيا متنعم بأمواله وفي الآخرة متنعم بالجنة، وأن عبدا فقيرًا مطيعا لله فيما أمره الله به لا يملك أموالا وفي الدنيا متعَب وهو في الآخرة متنعم بالجنة- يخطر على أذهاننا سؤال: أبهذا يكون الغني هو الأفضل والفقير مظلوما؟!!

قبل الإجابة على هذا السؤال أطرح عليك أيها القارئ سؤالًا: ماذا تختار؟ أو ماذا تفضل؟ أن تكون غنيًّا لمدة عام واحد ثم تمكث طيلة عمرك فقيرًا أم تظل فقيرًا لعام فقط وتصبر ثم بعد ذلك تكون غنيًّا طيلة عمرك؟

بالتأكيد وبفطرة الإنسان سوف تختار أن تكون فقيرًا لعام وتصبر لكي تبقى بعد ذلك غنيًّا طيلة العمر. لا أحد ينكر ذلك.

في الآخرة الفقراء يسبقون الأغنياء في الجنة بخمسمائة عام، الفقير الذي صبر في الدنيا سبعين عامًا سوف يدخل الجنة قبل الغني بخمسمائة عام متنعما، وذلك لحبس الأغنياء تلك المدة حتى يحاسبوا عما خولوه من الغنى من أين اكتسبوه؟ وفيم أذهبوه؟

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ[فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة سنة]

رواه الترمذي

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ [يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام] رواه الترمذي.

قال أهل التأويل في ذلك إن الغني من أهل الجنة لا يدخلها حتى يسأل عن ما أعطاه الله له من الدنيا، وأما الفقير من أهلها فإنه لا شيء عنده يسأل عنه، وإن كان عنده من شيء فهو قليل، فيكون موقفه أقصر.

فأصحاب المال يشتركون مع غيرهم في الحساب ويزيدون عليهم بالسؤال عن المال سؤالين: من أين اكتسبوه؟ وفيما أنفقوه؟

كما صح عن النبي- ﷺ فيما رواه الترمذي وغيره.

كما هذا ليس يدل على فضل الفقراء على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة فقد يتأخر الغني دخوله الجنة لحسابه فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع. لإن ساوى الأغنياء الفقراء في أعمالهم المفروضة من صيام وصلاة. بل زادوا عليهم بالصدقة والإنفاق في الخيرات.

_ اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا الوفاة خيرًا لي،

اللهم أسألك نعيما لا ينفد. وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك. اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهديين.

الباب السادس

زاد حبي حبا وزاد شوقي شوقًا، بك يا رسول الله أمضي
وعلى سنتك أحيا،، حبيبي وشفيعي يوم لقاء ربي
أسجد لله شاكرًا،،، الذي بعثك بالحق نبيًّا
ملأت الأرض نورًا،، يوم مولدك
سلام عليك حين ألقاك ساجدا تحت عرش الرحمن
صل الله عليك يا رسول الله،، يا خير الورى

عندما بعث رسول الله ﷺ بالدعوة تعرض لإيذاء من المشركين وقالوا عليه ساحر ومجنون وكذاب وشاعر.

إن كان ساحرا فلماذا لم يسحر الذين قالوا عنه ذلك وسحر الناس جميعًا وبهذا ينتهي الأمر.

وإن كان مجنونا فالإنسان المجنون لا يعرف منه معاني الكلام إنما جاء رسول الله ﷺ بكلام من عند الله عجزوا أن يأتوا بمثله.

قالوا عليه كذاب وهم أنفسهم قالوا عليه قبل المبعث بالدعوة الصادق الأمين وعرفوه بهذا.

قالوا عليه شاعر وهم عمالقة الشعر ويعلمون أنه ليس بشاعر ولذلك كان من معجزات القرآن الكريم أنه نزل في قوم من عباقرة الشعر والكلام

الفصيح وعجزوا أن يأتوا بمثله لكي لا يقولوا بأن القرآن الكريم جاء بلسانٍ لا يعلمون عنه شيئا.

الحمد لله الذي أرسل رسول الحق والرحمة المهداة خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال الإمام محمد متولي الشعراوى في كتابه معجزة القرآن إنه كلام الله المتعبد بتلاوته جاء من جنس ما نبغ فيه العرب. القوم الذين نزل فيهم هم قوم محمد ﷺ عرفوا بالبلاغة والفصاحة وحسن الأداء وجمال المنطق وسلاسة التعبير، فيتحداهم القرآن في هذا، فلما سمعوه انبهروا، ولكن العناد أوقفهم، قالوا ساحر. وهل يملك المسحور اختيارا مع الساحر؟ إذا كان محمد ﷺ ساحرًا سحر الناس، فلماذا لم يسحركم أنتم حتى تتبعوه، إن المسحور لا يخضع للساحر بإرادته، ولا يأتي ليقول له سأصدق هذا السحر وأكذب بهذا السحر. إنما المسحور مسلوب الإرادة أمام الساحر، فكونكم تقولون إنه ساحر وأنتم لا تؤمنون به دليل على أنكم كاذبون.

قالوا شاعر، والنبي محمد ﷺ لم يقل الشعر في حياته. وأنتم تعرفون، فلماذا فجأة تتهمونه بالشعر؟

قالوا مجنون، هل المجنون يكون على خلق؟ إذا كنت لا تعرف إن كان المجنون سيشتمك أو يقذفك بحجر، لا تعرف ماذا سيفعل معك في الدقيقة التالية. فهل المجنون يكون على خلق عظيم كالنبي ﷺ؟ الذين يعرفون خلقه جيدًا والذين كانوا يلقبونه قبل الرسالة بالأمين ويستأمنونه على ودائعهم حتى بعد البعث، الذي حدث أنهم انبهروا وذهلوا، لأنهم هم ملوك البلاغة والفصاحة وأساطيرها، فجاءهم كلام أعجزهم وجدوا أنفسهم عاجزين

فتخبطوا، قالوا ساحر، قالوا مجنون، وقالوا أشياء لا تخضع لأي منطق، لأنهم من هول المفاجأة فقدوا الحجة والمنطق، والقرآن يواصل التحدي أن يأتوا بمثله قال جل شأنه:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨]

ثم يمعن في التحدي ليقول بعشر سور:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣]

ثم يمعن في التحدي ليقول سورة من مثله:

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣]

ولم يكتفِ القرآن بذكر الرسل السابقين بل صحح ما حرّف من الكتب السماوية التي سبقت القرآن، وكان محمد ﷺ يتحدى بالقرآن أحبار اليهود ورهبان النصارى، ويقول لهم هذا من عند الله في التوراة والإنجيل، وهذا حرفتموه في التوراة أو الإنجيل، ولم يكونوا يستطيعون أن يواجهوا هذا التحدي أو يردوا عليه ذلك أن تحدي القرآن في تمزيق حجاب الماضي، وصل إلى أدق أسرار الرسالات السماوية الماضية فصححها لهم، وبين ما حرفوه منها وما أخفوه، وتحداهم أن يكذبوا ما جاء في القرآن فلم يستطيعوا، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [مريم: ٣٤] .

ثم جاء الأمر الثاني ومزق الله حاجب المكان لمحمد ﷺ وجاء في أمر أدق الأمور وهي النفس.

وهنا أحب أن نضع فى أذهاننا جيدًا أن القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته، وأنه يبقى بلا تعديل ولا تغيير ولا يجرؤ أحد على أن يمسه أو يحرفه ومن هنا فإن هذا الكلام حجة على محمد ﷺ مأخوذة عليه، فإذا أخبر القرآن بشيء واتضح أنه غير صحيح، كان ذلك هدما للدين كله، يأتي القرآن متحديا عن المنافقين.

قال تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ ﴾ [المجادلة: ٨]

ما معنى هذا الكلام. معناه إمعان فى التحدي، فالقرآن هنا لا يقول لهم لقد هتكت حاجز الماضي، وأخبرتكم بأنباء الأولين، ولا يقول لهم سأهتك حاجز المكان وأخبركم بما يدور فى بقعة قريبه لا ترونها بل يقول سأهتك حاجز النفس، وأخبركم بما فى أنفسكم. بما فى داخل صدوركم، وبما تهمس به شفاهكم وقال فى كلام متعبد بتلاوته لا يتغير ولا يتبدل:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨ ﴾ [المجادلة: ٨]

قال ما يدور فى أنفس غير المؤمنين.. فهل هناك أكثر من هذا التحدي.. لحجاب المكان.. ؟

إنه تحد فوق قدرة كل الاختراعات البشرية التى وصل إليها العلم الآن لاختراق حجب المكان.. بل إن التحدي ظهر فيما يحرص غير المؤمنين على إخفائه.. فالإنسان حين يحرص على إخفاء شيء.. ويكون غير مؤمن.. يأتي إليك فيحلف لك بأن هذا صحيح.. وهو غير صحيح في نفسه فقط.. ولكن حرصه في أن يخفيه على الناس يجعله مؤكدا أنه صحيح بالحلف.. ويأتي الله سبحانه وتعالى فيجعل القرآن يمزق نفوس هؤلاء الناس.. ويظهر ما فيها إمعانا في التحدي..

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [التوبة: ٤٢]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة: ٩٦].

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤] .

إذن فالقرآن هنا جاء لأناس غير مؤمنين.. وهتك حاجز النفس بالنسبة لهم فأخرج ما في صدورهم وعراهم أمام الناس جميعا.. وفضح كذبهم.. ونشر على الدنيا كلها ما في صدورهم من كذب ورياء ونفاق.. أي أنه أهانهم أمام

المجتمع كله.. ولو كان هذا غير صحيح لقال هؤلاء القوم إننا لم نكذب.. إننا لصادقون.. والكلام الذى يدعيه محمد بأنه يأتي من عند الله كلام غير صحيح..

ولكن هؤلاء بهتوا من أن القرآن مزق حجاب نفوسهم فلم يستطيعوا ردا.. وبهتوا لأن الله أخرج ما في صدورهم.. وعراهم أمام الناس جميعا.. فلم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم تواروا بعد أن افتضحت حقيقتهم.. ولو كان هذا القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يصل إلى داخل النفس البشرية.. وهى من أدق أسرار الدنيا التي لم يستطع أن يصل إليها حتى الآن.

فإذا بالقرآن يأتي متحديا بكلام متعبد به إلى يوم القيامة لا يستطيع أحد تبديل حرف فيه ليكشف ما في داخل النفس.. ويعري ما تكتمه عن الناس جميعا.. وما هي حريصة على كتمانه.. حتى إنها تحلف باسم الله كذبا ليصدقها الناس.. يأتي القرآن فيمزق هذا كله.. أتريد إعجازا أكثر من ذلك.

أحداث المستقبل وتحدي القرآن

نأتي بعد ذلك إلى آية أخرى.. الرسول عليه الصلاة والسلام يأتي فيقرأ.

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [المسد: ١-٥]

هذا قرآن.. وفيمن..؟

في عم الرسول.. وفيمن..؟ في عدو الإسلام.. ألم يكن أبو لهب يستطيع أن يحارب الإسلام بهذه الآية..؟ ألم يكن يستطيع أن يستخدمها كسلاح ضد القرآن.. ضد هذا الدين؟

قالت له الآية يا أبا لهب أنت ستموت كافرا.. ستموت مشركا.. وستعذب في النار.. وكان يكفي أن يذهب أبو لهب إلى أي جماعة من المسلمين.. ويقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.. يقولها نفاقا.. يقولها رياءً.. يقولها ثم يقف وسط القوم يقول: إن محمدا قد أنبأكم أنى سأموت كافرا.. وقال إن هذا كلام مبلغ له من الله. وأنا أعلن إسلامي لأثبت لكم أن محمدا كاذب..

(لو كان أبو لهب يملك ذرة واحدة من الذكاء لفعل هذا.. ولكن حتى هذا التفكير لم يجرؤ عقل أبي لهب على الوصول إليه.. بل بقي كافرا مشركا.. ومات وهو كافر.. ولم يكن التنبؤ بأن أبا لهب سيموت كافرا.. أمر ممكن.. لأن كثيرا من المشركين اهتدوا إلى الإسلام كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعمر بن الخطاب.. وغيرهم.. كانوا مشركين وأسلموا.. فكيف أمكن التنبؤ بأن أبا لهب بالذات لن يسلم ولو نفاقا.. وسيموت وهو كافر.. المعجزة هنا أن القرآن قد أخبر بما سيقع من عدو.. وتحداه في أمر اختياري.. كان من الممكن أن يقوله ومع ذلك هناك يقين أن ذلك لن يحدث.. لماذا..؟ لأن الذي قال هذا القرآن.. يعلم أنه لن يأتي إلى عقل أبي لهب تفكير يكذب به القرآن.. هل هناك إعجاز أكثر من هذا،،،؟

هل تدرك مدى العناء الذي تعرض له رسولنا الكريم أشد أنواع الإيذاء لحقت برسول الله ﷺ في بداية الدعوة ونشر دين الله سبحانه وتعالى، على يد سفهاء قومه من المشركين.، لك أن تتأمل حين أمر الله ﷻ رسوله الكريم بالجهر بالدعوة ليعلن رسول الله ما أتى به من عند الله سبحانه وتعالى، مثلا عندما أنزل عليه قوله تعالى

﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] .

قد تزداد ضربات القلب وتتصاعد الأنفاس لتزداد النبضات ودقات القلب، عندما أحدثك في أثناء أو عندما صعد رسول الله ﷺ جبل الصفا، عن ابن عباس قال: صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش. فقالوا ما لك قال أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصحبكم أو يمسيكم كنتم تصدقون؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا. قال فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك ألهذا جمعتنا]

أخرجه البخاري في التفسير ومسلم.

أعلن رسول الله ﷺ من فوق جبل الصفا دين الله أمام معشر قريش، دينا لا يفرق بين السيد والعبد إلا بالتقوى في قوم استعبدوا البشر، أشعرت مدى غضب أسياد قريش من ذاك النبي الجليل ومن هذا الدين الذي جاء ليساوي بين البشر، يساوي بين العبد وسيده؟ ألم تكن نبضات قلبك تتسارع ليرتفع معدل ضربات القلب عندما يجهر رسول الله لقوم أباحوا كل المحرمات. كالزنا والخمر واستعباد البشر وغيرها. ويأتي بمنهج يقيد حركاتهم المحرمة قيدا يكبل شهواتهم ووثاقا يعطل رغباتهم وخندقا يحاصرهم في كل مكان، هل أدركت المخاطر والحروب الثائرة نتيجة الجهر بالدعوة، في مواجهة أسياد قريش فيما يبلغه رسول الله ﷺ من شريعة الإسلام عن رب العزة جل جلاله؟ هل أيقنت مدى صعوبة المواجهة من المعارك، لتغيير قوم يعبدون الأوثان والأصنام من دون الله، يعبدون الحجارة؟ أغمض عينك برهة واستشعر عذاب وآلام من آمن برسول الله في بداية الاضطهادات ضد الرسول وأصحابه، من إساءات مهدرة للكرامة الإنسانية بمختلف أنواعها وأشكالها

وألوانها، يصمدون أمام طوفان غضب سادة قريش التي نزعت من قلوبهم الرحمة لتحل القسوة بدلا منها. ثائرون على من آمن بدين الحق الذين كانوا ضعفاء الحيلة، ولكن أقوياء الإيمان بالله ورسوله الكريم ﷺ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

لم يترك كفار قريش نوعًا من العذاب إلا فعلوه يريدون أن يطفئوا نور الله وهدم هذا الدين، ولكن تكفل الله بنشره وإتمامه ولو كره كل كافر ومهما حاربه كل جاحد.

قال الله في كتابه المتعبد بتلاوته:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢-٣٣] .

كان من وسائلهم أيضا في تلك الحرب أن تعرض النبي ﷺ للإيذاء الجسدى على يد السفهاء من الكفار والمشركين وهو صابر محتسب من أجلنا ومن أجل إيصال الدين إلينا، لينقذ البشرية من النار ويهديها إلى طريق الحق، لكل هذا وذاك تعرض رسول الله ﷺ وتحمل أشد أنواع الإيذاء، أليس هذا كافيا من أن نتبع ونتبع هديه وسنته، أليس لذلك كافيا أن تمتلئ قلوبنا بمحبته. ونحب من يحبه ونبغض من يبغضه، ونفديه بأرواحنا وأجسادنا؟

رغم ذلك كله فشلت محاولات قريش لإيذاء رسول الله ﷺ ومحاولات هدم وإيقاف دعوته فاشتد غضبها وازداد غيظها على رسول الله ﷺ ومن آمن معه من أصحابه، فلجؤوا إلى الإيذاء الجسدي، كانت امرأة أبي لَهبٍ تَحْمل

الشَّوك، وتضَعُه في طريق النبي - ﷺ - وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأةً سليطةً تبسط فيه لسانَها، وتطيل عليه الافتراءَ والدسَّ، وتؤجّج نار الفتْنة، وتثير حربًا شعواءَ على النبي - ﷺ - ولذلك وصَفَها القرآنُ بحَمَّالة الْحَطب.

ومن صور الإيذاء ما رواه عبد الله بن مسعود ﷺ قال: "بينما رسول الله ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور، فقذفه على ظهر رسول الله ﷺ، فلم يرفع رأسه، فجاءت فاطمة فأخذته عن ظهره، ودعت على مَن صنع ذلك، فقال: «اللهُمَّ، عَلَيْكَ الْمَلَأَ منْ قُرَيْشٍ: أَبَا جَهْل بْنَ هشَامٍ، وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبى مُعَيْطٍ، وَشَيْبَةَ بْنَ رَبيعَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، قال: "فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر ..."

رواه مسلم.

معنى سلا الجزور مشيمة الناقة.

ومن قسوة الإيذاء عندما اتجه رسول الله ﷺ إلى الطائف لتكون وجهة رحلته الدعوية لطلب النصرة بعد اشتداد الأذى في قريش عمد إلى نفر من ثقيف وهم سادة ثقيف وأشرافهم وهم إخوة ثلاثة، عبد ياليل. ومسعود. وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وعرفهم بدين الله ﷻ، ولكن فزعوا وأعلن عبد ياليل بن عمرو أنه سيمزق ثياب الكعبة إن كان الله أرسل محمدًا رسولا، ولم تكن ردود كل من مسعود وحبيب. مختلفة كثيرًا عن رد عبد ياليل، فاقدين للمروءة. فما لبثوا أن سلطوا عليه سفهاءهم وغلمانهم ليسبوه ويصيحوا به وأخرجوه من الطائف وأرسلوا خلفه عبيدهم وسفهاءهم يرجمونه بالحجارة ويقذفونه بأسوأ الكلام والسباب، حتى سالت دماؤه الشريفة ﷺ على كعبيه،

وكان زيد بن حارثة ﷺ يتلقى الحجارة في جسده حتى لا تصيب رسول الله وهو يسرع الخطا عائدا إلى مكة. لكنهم لم يتركوه وظلوا يتعقبونه بالحجارة والسباب مسافة طويلة. ثم عادوا.

أسرع رسول الله ﷺ وهو مثقل بالهموم والأحزان إلى أن جلس وأسند ظهره إلى شجرة، ثم انهمرت عبراته وهو يدعو بدعاء يعبر عن مدى الألم والحزن قال

{ اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربّي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدوٍ ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، ولكنّ عافيتَك هي أوسعُ لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو يحلَّ عليّ سخطك، ولا حول ولا وقوة إلا بك)

كان هذا دعاء النبي صلوات الله وسلامه عليه في الطائف وقد خرج إلى أهلها، يلتمس هدايتَهم ونصرَتَهم، فردُّوا دعوته ردا منكرًا، وأغلظوا له في القول، وأغرَوا به سُفهاءهم، يصيحون به.

ولقد جاءه جبريل عليه السلام فيما رواه الشيخان عن عائشة يعرض عليه أن يُطْبقَ على هؤلاء الجبلين، فقال قولةً عبَّرت عن رحمته الفياضة، وعن خُلُقه العظيم: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا).

لأجل كل هذا وغيره تعرض له رسولنا الكريم محمد ﷺ لإيذاء نفسي وبدني وما ألم به من حزن من أهل قريش ومن أهل الطائف. ويكفي نفيه خارج مكة

لمدة ثلاث سنوات، ثم ما حدث له من هجوم عليه من أهل الطائف ورغم ذلك لم يدعُ عليهم. بل دعا لهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يدعو الله الواحد الأحد.

في شدة الحزن والهم عاد الرسول إلى مكة بعد أن أغلقت الأبواب كلها في وجهه، ولكن الله هيأ له قوما ينصرونه قبل أن يدخل مكة، ثم خفف الله عنه العناء والإيذاء الذي تعرض له بمعجزة الإسراء والمعراج.

لهذا أحببنا رسول الله ﷺ سيد الخلق وحبيب الحق الذي ختم به الله النبوات والرسالات لينقذ البشرية من جهنم، فيمتلئ قلبنا إيمانًا ومحبة لرسول الله ﷺ الذي بلغ سدرة المنتهى الذي ما خاطبه الله باسمه أبدا بل خاطبه: يأيها النبي، يأيها الرسول.

النبي الذي بلغ درجات العلا لم يكن من أعداء الإسلام في الغرب والعالم وسيلة إلا الإساءة لرسول الله لحقدهم وكرههم، لم يصرفوا عقولهم يومًا إلى التأمل في سيرة رسول الله ﷺ العطرة.

لم يترك المشركون يومًا رغم الإيذاء والإساءة من أهل الطائف له.

ومما عاناه ما ذكرته عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال:

يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك، فما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا،]

[صحيح البخاري]

النبي ﷺ في يوم أحد وقع له ما وقع سقط في الحفرة، وشُج وجهه الشريف، سال الدم على وجهه ﷺ وكسرت رباعيته، وقتل من أصحابه من قتل، حيث بلغوا السبعين، ومُثّل بعمه حمزة، كل ذلك لقيه في يوم أحد، عرض على رسول الله ﷺ عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئًا، هذه رحمة رسول الله ﷺ بقومه. رغم أذيتهم له، لقد أوذي النبي الكريم ﷺ وابتلي في سبيل هذا الدين أشد البلاء حتى رمي بالحجارة وأدمي كعبه وشج رأسه، ومع ذلك كله صبر وأشفق عليهم وعفا عنهم.

ورغم هذا الهجوم على الإسلام من الغرب والعالم ومحاولة التشويه من خلال الإساءة إلى رسول الله ﷺ، إلا أن هناك إقبالا بين هؤلاء على اعتناق الإسلام، لما عرفوا من الحق. فيدخلون في دين الله سبحانه وتعالى أفواجا.

أما حبه فهو من أفضل القرب إلى الله، ومن أفضل العبادات التي نتقرب بها إلى الله ﷻ.

عن أنسٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال: (ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار)

متفق عليه.

ومحبة رسول الله ﷺ تنشأ من طاعته فيما أمر به واجتناب ما نهى عنه وتصديق ما أخبر به والتخلق بأخلاقه والاهتداء بهديه والاقتداء به وحب أهل بيته الأخيار وصحابته الكرام، وهذه المحبة بالقلب والنفس وسائر الجوارح، فهي المحبة الصادقة الخالصة، قال جل ثناؤه

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤]

ولماذا لا نحب رسول الله ﷺ وهو الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور وأتانا ببركة رسالته خير الدنيا والآخرة؟

نحبه لأنه حبيب الله ومن أحب الله أحب كل ما أحبه الله، وهو أعظم محبوب من الخلق لله، نحبه لكمال رأفته وعظيم رحمته بأمته.

قال تعالى ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٨]

رسول الله بعث رحمة للعالمين:

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

قال الشيخ الشعراوى:

رسالة النبي ﷺ أخذت هنا عمومية.. عمومية المكان.. ثم يقول الله سبحانه وتعالى خاتم النبيين.. إذن أخذت الرسالة هنا عمومية الزمان أيضا.. أخذت عمومية للزمان والمكان.. ولذلك يجب أن يأتي التشريع لكل زمان وكل مكان ولكن لماذا جاءت الرسالة رسالة النبي ﷺ لها عمومية المكان وعمومية الزمان هذا أيضا من إعجاز القرآن ذلك أن الله سبحانه وتعالى في علمه أن آفات البشرية كلها ستصبح آفة واحدة ذلك أن العالم كلما تقدم وازداد اتصاله توحدت الآفات التي يشكو منها؛ فقبل رسالة محمد ﷺ كان هناك انعزال في الدنيا لا توجد اتصالات بين المجتمعات البشرية وكان كل مجتمع بشري يعيش وينتهي دون أن يدري مجتمع بشري آخر في مكان بعيد عنه ذلك أن الاتصالات بين المجتمعات البشرية المختلفة كانت شبه معدومة لبعد المسافة وضعف وسائل المواصلات أو انعدامها وعدم تقدم العلم الذي يمكن البشر من الاتصال في أوقات قصيرة ومن هنا كان لكل مجتمع آفاته الخاصة وأمراضه وانحرافاته وغفلته عن الدين وكانت الرسل تأتي إلى هذه المجتمعات لتذكر بمنهج الله ولكنها كانت ترسل إلى مجتمع بعينه كعاد وثمود وآل لوط وغيرهم بل كما قلت في أحيان كان يرسل الله سبحانه وتعالى أكثر من رسول في نفس الوقت هذا ليعالج آفات مجتمع وهذا ليعالج مجتمعا آخر كما حدث مع لوط وإبراهيم مثلا.

كان هناك انعزال وكان هذا الانعزال يجعل الداءات مختلفة ويتم إرسال الرسل إلى كل مجتمع لتذكير أهله ولكن الآن وبعد أن التقى العالم وارتقى توحدت الداءات أو أصبحت كلها حول دائرة واحدة يحدث شيء في أمريكا

فيصبح عندك بعد ساعة واحدة تكاد تكون هناك وحدة الآفات في العالم كله آفة البشرية واحدة في البلاد المتقدمة وفي البلاد غير المتقدمة لأنه حدث التقاء بشري. عندما يحدث الحادث يعرفه العالم كله بعد دقائق.

ما دامت الآفات قد توحدت نتيجة للاتصال البشري الكبير الذي تم فلا بد من وحدة المعالجة وهكذا أنبأنا الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم منذ وقت نزوله أن العالم سيتقدم ليصبح وحدة واحدة وأن الآفات في العالم تكاد تتوحد نتيجة الاتصال السريع بين أجزائه ولذلك لا بد من وحدة المعالجة فأرسل هذا الدين رحمة للعالمين وهذا معنى كلمة رحمة للعالمين أي للعالم كله الذي توحدت داءاته وآفاته ولا بد أن يكون المعالج واحدا يشمل الجميع.

وما دام رسول الله ﷺ خاتم النبيين فمعنى ذلك أن الدين الذي سيأتي به سيعالج آفات العالم وأنه سيكون رحمة للعالمين في كل زمن حتى تقوم الساعة.

معنى الشفاء ومعنى الرحمة ومعنى هذه الآية الكريمة أنه لا توجد قضية في العالم تمس حياة البشرية إلا وموجود في منهج الله ما يعالج به. بالرحمة تلين القلوب بالرحمة يعطف الغني على الفقير والكبير على الصغير بالرحمة يعم

الأمن والأمان بالرحمة تطمئن النفس. مولده رحمة صلى الله عليك يا رسول الرحمة.

من أعظم تكريم الله ﷻ لرسوله الكريم ﷺ قول الله تعالى

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]

تأملوها جيدًا فإنها من تمام التقدير وكمال التوقير تلك منزلة الله ﷻ لعبده ورسوله محمد ﷺ في الملأ الأعلى ثم أمر الله عباده بالصلاة على رسوله وما أعظم ثناء الله على نبيه وصلاة الملائكة في الملأ الأعلى.

ومن فضل الصلاة على رسول الله قال رسول الله ﷺ: (إن جبريل عليه السلام أتاني فبشرني أن الله ﷻ يقول لك من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه)

رواه الإمام أحمد

حتى في أوقات الحرب والشدة كان رسول الله ﷺ إذا أرسل جيشًا كان يأمره ألا يقتل امرأة أو طفلًا أو عجوزا ولا يقطع شجرة ولا يقترب لعابد في محرابه فلم يرفع سيف في الإسلام إلا للدفاع عن الوطن والدين.

فهذا هو رسولنا نبى الرحمة وهذا ديننا وهذا رسولنا ﷺ وعلى الله قصد السبيل.

اللهم إنى أسألك بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات أن تكتب أسماءنا عندك من أهل الجنات.

الباب السابع

إذا أردت أن تندم على شيء فاندم على كل لحظة لم تذكر فيها الله

*****

عندما تحب فأنت إنسان وعندما تعشق فأنت ملاك
وبين الحب والعشق قلب ينبض بذكر الله

*****

خرجت باحثًا عن السعادة فوجدتها في قلب شاكر
ولسان ذاكر وعقل راض وذهن صاف
وبدن على البلاء صابر

*****

إن الإكثار من ذكر الله والاستغفار والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ من أعظم أسباب طمأنينة القلوب وراحتها والسكون إلى الله والأنس به سبحانه وتعالى وزوال الوحشة والذبذبة والحيرة.

ذكر الله والصلاة على النبي ﷺ من أسهل العبادات ومن أعظمها في الوقت نفسه على الإطلاق فهي عباده غفل عنها الكثير عبادة لا تحتاج إلى وضوء أو جهد وليس لها أوقات معينة.

أجمع العلماء على أن ذكر الله سبحانه وتعالى بكل أنواعه لا يحتاج إلى طهارة فباستطاعة المسلم أن يذكر المولى ﷻ في كل أوقاته

في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها [كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه]

حتمًا سوف يندم كل إنسان على هذه العبادة بل على كل العبادات وسوف يندم الكافر أشد الندم يوم لا ينفع فيه الندم آنذاك

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩] .

ليس له إلا الندم والحسرة لكل لحظة لم يذكر فيها الله ﷻ؛ فقد ضيعنا أوقاتنا في التفاهات والجرى خلف نزواتنا ولم نستثمر أوقاتنا ونغتنمها ونستفد منها.

على الإنسان استغلال وقت فراغه في عبادة الله تعالى كالصلاة والتسبيح والاستغفار أو التهليل بدلا من قضاء الوقت في الأشياء الملهية عن ذكر الله تعالى فكم من أوقات يجدها الإنسان ليستثمرها في الذكر والاستغفار وهي كثيرة وللمسلم أن يختار منها ما هو أنسب له وأصلح فقد تجد وقت ذكر الله عند ذهابك إلى العمل وعند رجوعك من العمل وفي وسائل المواصلات وفي أوقات الانتظار عند الطبيب أو انتظار صديق أو في المنزل تلك أوقات ضائعة لو استثمرتها في ذكر الله سبحانه وتعالى وتسبيحه لتغير حالنا واطمئنت قلوبنا بطاعة الله.

فإن فضل الذكر عظيم لو يعلمه المرء ما تركه قط.

إن من أفضل الأعمال الصالحة اليسيرة التي تقرب المسلم إلى ربه جل وعلا الذكرُ، وقد ذكر الله تعالى الذاكرين في كتابه بأجل الذكر فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

[آل عمران: ١٩٠-١٩١]

وبيَّن في آية أخرى فضل الذكر وأنه تطمئن به قلوب أهل الإيمان؛ فقال:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

[الرعد: ٢٨]

وجعل جزاء الذاكر أن يذكره سبحانه وهل هناك أرفع من أن يذكر الله سبحانه عبده المؤمن؟! قال تعالى:

﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢]

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال:

[يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدى بي وأنا معه حين يذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ هُمْ خير منهم]

رواه البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله:

"ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفي بها فضلًا وشرفًا".

وانظر إلى هذا الحديث العجيب في بيان فضل الذكر والذاكرين: عن أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم منْ أَنْ تلقَوْا عدوَّكُمْ فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟» قالوا: "بلى يا رسول الله"! قال: «ذكر الله ﷻ»

[قال معاذ بن جبل ما شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله]

رواه الألبانى في صحيح الترمذي.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ يسير في طريقه إلى مكة فمرَّ على جبل يقال له جمدان" فقال سيروا هذا جمدان. سبق المُفَرّدُونَ قالوا: "وما المُفَرّدونَ يا رسول الله قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات]

صحيح مسلم.

وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله منذ صلاة الغداة حتَّى تطلع الشمس أَحَبُّ إلى من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل ولأن أَقْعُدَ مع قوم يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أَحَبُّ إلى من أعتق أربعة]

سنن أبي داود.

قال أبو بكر: "ذَهَبَ الذَّاكرُون الله بالخير كله "،

وقال أبو الدرداء: "لكل شيء جلاء وإن جلاء القلوب ذكر الله ﷻ "،

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية:" الذكر للقلب مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فقد الماء ".

وقال ابن القيم: "وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللسان وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكرُ معانيَهُ ومقاصدَهُ "

عن أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: [من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يُمْسيَ ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطَّتْ خطاياه وإن كانت كانت مثل زبد البحر، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أَحَبُّ إلى ممَّا طَلَعَتْ عليْه الشَّمْسُ]

صحيح مسلم.

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالذكر الكثير فقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]

والنبي ﷺ شرع لأمته من الأذكار ما يملؤ الأوقات! فلكل حالة أو زمن ذكرٌ يخُصُّه؛ ففي الصباح أذكار مخصوصة وفي المساء كذلك وعند النوم واليقظة وعند دخول البيت والخروج منه وعند طعامه وشرابه وغير ذلك من أحواله ولا شك أن من حافظ على هذه الأذكار فإنه سيكون من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات وبهذا يأمن مما اتصف به المنافقون حيث يقول الله عنهم:

﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢]

ومن الأذكار العامة التي تشرع بعد صلاة الصبح ما رواه ابن عباس عن جويرية: "أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى" فقال: «ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟!» قالت: "نعم" قال النبي ﷺ: «لقد قلتُ بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزنتْ بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته]

صحيح مسلم

ومن الأذكار التي تقال في الصباح والمساء ويقولها العبد كلما شعر بحاجته إلى مغفرة ربه ما رواه شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: (اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت قال)

مَنْ قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مُوقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة]

صحيح البخاري

وما أعظم ذلك وما أجمل التسبيح قال جل شأنه

﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الطور: ٤٨-٤٩]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ ﴾ [غافر: ٥٥] .

من فضل الأذكار والتسبيح كذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ :[كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده]

رواه البخاري

إن الذكر والتسبيح ثقيل في ميزان الله تعالى وسبب لمغفرة الخطايا وقد ورد في ذلك الكثير من الأحاديث النبوية والباب واسع فسبح الله ما شئت فهذا فضل عظيم غفل عنه الكثير فكن حريصا على ألا يمر عليك يوم دون ذكر الله ﷻ من استغفار وتسبيح وصلاة على النبي ﷺ فإنها لا تكلفك شيئا فإن العبد يأتي يوم القيامة بسيئات مثل الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله سبحانه وتعالى.

يستحب الإكثار من الاستغفار بالليل والنهار وقد كان النبي ﷺ يستغفر الله ﷻ في اليوم مائة مرة ونحن إلى الاستغفار أحوج.

وكذلك الصلاة على رسول الله ﷺ فإن فضلها عظيم وثوابها جزيل فلا تحرم نفسك من هذا الثواب العظيم فكن ذكيا في عبادتك واستثمر وقتك الضائع واكسب حسنات لا تحصى ولا تعد.

يقول ابن عطاء الله السكندري: من فاته كثرة الصيام والقيام فليشغل نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺفإنك لو فعلت في عمرك كل الطاعات ثم صلى الله عليك صلاة واحدة رجحت تلك الصلاة الواحدة على كل ما عملته في

عمرك كله من جميع الطاعات لأنك تصلى على قدر وسعك وهو سبحانه وتعالى يصلى على قدر ربوبيته.

قال ابن القيم رحمه الله: من أراد انشراح الصدر وغفران الذنب وتفريج الكرب وذهاب الهم فليكثر من الصلاة على النبي ﷺ.

للقلوب صفاء وصفاء القلوب ذكر الله. أقسم بالذي رفع السماء بلا عمد لم أذق الراحة قط إلا وأنا في رحاب الله ما بين تسبيح وذكر وصلاة إنها روحانيات لا يعرفها إلا العشاق اللهم ارزقها لكل مشتاق.

الباب الثامن

كل إنسان منا محتاج سوفت وير لمسح ذنوبه ثم عمل ضبط مصنع ويعود إلى الله ويعمل إعادة ضبط أعماله في طاعة الله ثم تنزل برامج مضاد الفيروسات القرآن الكريم. بعد الانتهاء من كل ذلك سوف تشعر بنفسك خفيفا وسريعا على الصراط جارٍ التحميل في ميزان حسناتك وتفتح لك أبواب الجنة.

لغة العصر والتقنيات الحديثة في أيامنا هذه التي تهدف إلى إعادة الهاتف لحالته الأصلية كذلك الإنسان يجب عليه أن يقف مع نفسه وقفة محاسبة قبل فوات الأوان. فكلما كثرت محاسبة الإنسان لنفسه قلت عيوبه ومسحت ذنوبه.

ينبغى على العبد أن يحاسب نفسه على جميع أقواله وأفعاله فإن وجد خيرًا شكر الله وإن وجد غير ذلك فعليه أن يسارع إلى التوبة والرجوع إلى الله وإصلاح ما فسد. يقول عمر بن الخطّاب- رضي اللّه عنه-: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنّه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزيّنوا للعرض الأكبر؛ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحاقة: ١٨] .

وكتب - ﷺ- إلى بعض عمّاله فكان في آخر كتابه: "أن حاسب نفسك في الرّخاء قبل حساب الشّدّة؛ فإنّه من حاسب نفسه في الرّخاء قبل حساب الشّدّة عاد مرجعه إلى الرضى والغبطة ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد

أمره إلى النّدامة والحسرة فتذكّر ما توعظ به لكيما تنتهي عمّا ينهى عنه وتكون عند التّذكرة والعظة من أولي النّهى "

(محاسبة النفس لابن أبى الدنيا »

وقال الحسن- رحمه الله-:

"إنّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همّته " وعنه قال:

﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [القيامة: ٢]

لا تلقى المؤمن إلّا يعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي؟! "

وقال مالك بن دينار- رحمه الله-:

"رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثمّ زمّها ثمّ خطمها ثمّ ألزمها كتاب الله- ﷻ- فكان لها قائدًا "

(محاسبة النفس لابن أبى الدنيا)

وقد دلّ على وجوب محاسبة النّفس قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ١٨]

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره:

أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم؛ واعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير.

قال فيصل بن على البعداني في مجلة البيان إن حقيقة التوبة: هي رجوع العبد إلى ربه تعالى؛ بفعل الطاعة واجتناب المعصية ومفارقة طريق المغضوب

عليهم والضالين فهي رجوع عما تاب منه العبد إلى ما تاب إليه فالتوبة هي: الرجوع إلى الله وفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الناس ولا يتصورون التوبة إلا عما يفعله العبد من الفواحش والمظالم بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بها أهم من التوبة من فعل السيئات المنهي عنها فأكثر الخلق يتركون كثيرًا مما أمرهم الله به من الأقوال والأعمال وقد لا يعلمون أن ذلك مما أُمروا به أو يعلمون الحق ولا يتبعونه فيكونون: إما ضالين؛ بترك العلم النافع وإما مغضوبًا عليهم؛ بالإعراض عن الحق بعد معرفته.

للأزمات أثرها في شعور الناس بضعفهم وعجزهم يصاحب ذلك تطلع إلى الخلاص فإذا المرء يتلفت عن يمينه وشماله بحثًا عن مخرج فهنا تتجه النفوس إلى خالقها حتى إن المشركين إذا مسهم الضرّ دعوا الله مخلصين له الدين!

تلك الفرصة السانحة من إقبال القلوب على الله تعالى هي مفتاح الفرج إذا ما أُحسن استثمارها بابتداء عملية مراجعة شاملة للنفس مع صدق العزم على المضيّ في التغيير الجاد الذي جعله الله شرط تغير الأحوال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ﴾ [الرعد: ١١]

*** منزلتها:**

وردت العديد من النصوص التي تبين فضل التوبة وعظم منزلتها ومن ذلك أنها:

سبب لنيل محبة الله ﷻ:

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]

إذ في التوبة تقرب من الله تعالى بالإقدام على الطاعة واجتناب المعصية وذلك عن طريق الظفر بحب الله كما جاء في الحديث القدسي أنه ﷻ قال: «وما تقرب إليّ عبدى بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه»

(البخاري رقم ٦٥٠٢)

التوبة - سبب للفلاح في الدنيا والآخرة: كما قال الله ﷻ:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

[النور: ٣١]

التوبة إلى الله سبيل عدم الخوض في الظلم: كما قال الله ﷻ:

﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١]

التوبة سبب لتكفير السيئات ودخول الجنات: كما قال ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ [التحريم: ٨]

وقال ﷻ:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]

وقال ﷺ: [التائب من الذنب كمن لا ذنب له]

(ابن ماجهْ رقم ٤٢٥٠ وحسنه الألباني)

وقال ﷺ: [اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»

(الترمذي رقم ١٩٨٧ وقال: حسن صحيح وحسنه الألباني)

وقال ﷺ: [إذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمسحها]

(أحمد رقم ٢١٤٨٧ وقال محققه: حسن لغيره.

سبب لتبديل السيئات حسنات: كما قال الله ﷻ:

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان: ٧٠]

وعن أبى طويلٍ ﷺ أنه قال: "أتيت النبي ﷺ فقال: "أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئًا وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا دَاجَة إلا أتاها؛ فهل لذلك من توبة؟" قال: «فهل أسلمت؟» قال: "أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله" قال: «تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن» قال: "وغدراتى وفجراتي" قال: «نعم» قال: "الله أكبر" فما زال يكبر حتى توارى"

(المعجم الكبير للطبراني رقم ٧٢٣٥ وقال عنه المنذرى في الترغيب والترهيب ٤ / ١١٣ وهذا إسناد جيد قوي)

التوبة سببٌ لسلامة القلب ونقائه:

فعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: [إن العبد إذا أخطأ نُكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نَزَع واستغفر وتاب صُقل قلبه وإن عاد زيد فيه حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤]

(الترمذي رقم ٣٣٣٤ وقال حسن صحيح وحسنه الألباني)

التوبة سبب لتحصيل دعاء الملائكة واستغفارهم: كما قال ﷻ حكاية عن الملائكة أنهم يدعون الله قائلين:

﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٧]

* **الترغيب في التوبة:** وردت العديد من النصوص التي تأمر بالتوبة وترغب فيها ومن ذلك:

قول الله ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]

وقوله تعالى:

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١ ﴾

[النور: ٣١]

وقوله سبحانه:

﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤ ﴾ [المائدة: ٧٤]

وقوله تعالى:

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وعن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»

(مسلم رقم ٢٧٥٩)

وعن رفاعة الجهنى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يمهل حتى إذا ذهب من الليل نصفه أو ثلثاه قال: لا يسألن عبادى غيري مَنْ يدعني أستجب له مَنْ يسألني أعطه مَنْ يستغفرني أغفر له حتى يطلع الفجر»

(مسلم رقم ٧٥٨ ابن ماجه رقم ١٣٦٧ واللفظ له)

وعن صفوان بن عسال ﷺ قال: قال ﷺ: «إن للتوبة بابًا عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها»

(الطبراني في الكبير رقم ٧٣٨٣ وصححه النووي في شرحه لمسلم: ١٧ / ٤٠)

وعن أنس ﷺ قال: قال ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدى وأنا ربك!! أخطأ من شدة الفرح»

(مسلم رقم ٢٧٤٧)

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم»

(ابن ماجهْ رقم ٤٢٤٨ وحسنه الألباني)

وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»

(ابن ماجه رقم ٤٢٥١ وحسنه الألباني)

*** شروط التوبة:**

إذا استجمعت التوبة الشروط اللازمة لها؛ فإنها مقبولة ماحية للذنوب والمعاصى التي يتاب منها وشروط التوبة هي:

١ - أن تكون خالصة لله تعالى واقعة لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والهيبة مما عنده سبحانه لا كمن يتوب لحفظ مصلحته ومنصبه ورياسته أو لحفظ قوته وماله أو لاستدعاء حمد الناس أو الهروب من ذمهم أو لئلا يتسلط عليه السفهاء أو لكرهه للأمر الذي كان عاصيًا لله تعالى به وانتهاء نهمته منه أو لإفلاسه وعجزه وعدم قدرته على اقتراف المعصية ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحة التوبة وخلوصها لله ﷻ قال الله تعالى:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠]

وقال سبحانه في الحديث القدسي: [أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه]

(مسلم رقم ٢٩٨٥)

٢ - أن تكون التوبة موافقة لهدْي نبينا محمد ﷺ وذلك لأن التوبة من العبادات الخالصة التي يجب أن تتلقى عن الله ورسوله ﷺ الذي قال: [من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد]

(مسلم رقم ١٧١٨)

قال ابن رجب رحمه الله: "فكما أن كل عمل لا يراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله؛ فهو

مردود على عامله وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء"

(جامع العلوم والحكم: ١ / ٥٩)

وقال الثوري رحمه الله: "كان الفقهاء يقولون: لا يستقيم قول إلا بعمل ولا يصح قول وعمل إلا بنية ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بالسنة"

(الإبانة الكبرى لابن بطة: ١ / ٣٣٣)

٣ - أن يقلع الإنسان عن الذنب: وذلك لأن التوبة تستحيل مع مباشرة العبد للذنب الذي يتوب منه فمن لا يصلي لا بد له أن يصلي ومن يكذب لا بد له أن يترك الكذب ومن يعق والديه لا بد له من برهما وهكذا ولا شك أن من ادعى التوبة وأكثر من ترديد قول: "أستغفر الله" مع إقامته على المعصية التي يتوب منها لا شك أنه كاذب في ادعائه بل هو كالمستهزئ بالله سبحانه.

والمقياس هو العمل والسلوك وليس الكلام والادعاء فكم من إنسان ليس له من الإسلام إلا الاسم ومن الأخلاق إلا الادعاء ومن التوبة إلا الرياء.

٤ - أن يندم على فعل الذنوب: فمن لم يندم على فعل الذنب دل على رضاه به وإصراره وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «الندم توبة»

(ابن ماجه رقم ٤٢٥٢ وصححه الألباني)

والنادم: هو الذي يتمنى لو عاد به الزمان واستقبل من أمره ما استدبر؛ ما فعل الذنب ولاستقام على أمر الله ﷻ وطاعته ولم يفارقها.

٥ - أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب أبدًا:

والعزم: هو الإصرار على عدم العودة إلى اقتراف الذنب مرة أخرى وهو من لوازم صدق التوبة فلا توبة لمن يعلن الإقلاع عن ذنب وهو ينوي اقترافه أو لا مانع لديه من ذلك؛ إذ ذلك حال المتلاعبين، والعزم على عدم الذنب لا يعني عدم الوقوع في الذنب؛ بحيث متى عاد إلى الذنب بطلت توبته بل المطلوب من العبد أن يعزم عزمًا أكيدًا وأن يصر إصرارًا جازمًا على عدم العودة إلى الذنب فمتى فعل ذلك صحت توبته وقبلت فمن أزله الشيطان بعد ذلك فوقع في الذنب مرة أخرى؛ فإنه يحتاج إلى توبة صادقة أخرى ولا علاقة لهذه التوبة الثانية بالتوبة الأولى وتوبته الأولى صحيحة غير باطلة لحديث عقبة بن عامر ﷺ أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أحدنا يذنب قال: [يُكتب عليه] قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: «يُغفر له ويتاب عليه» قال فيعود فيذنب

قال: «فيُكتب عليه» قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: «يُغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا»

(الطبراني في الأوسط رقم ٨٦٨٩ وقال الهيثمي في المجمع: [١٠ / ٢٠٠) إسناده جيد)

وحديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ قال: أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: عبدى أذنب ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي! فقال تبارك وتعالى: أذنب

عبدى ذنبًا فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب اعمل ما شئت فقد غفرت لك»

(البخاري رقم ٧٥٠٧ مسلم رقم ٢٧٥٨ واللفظ له)

٦ - إرجاع الحقوق إلى أصحابها: إذا كان الذنب يتعلق بحق آدمى كسرقة أو غش ونحو ذلك فلا بد أن يرد الحق إلى صاحبه إلا أن يسامح صاحب الحق ويعفو أما إن كان الذنب سبًّا أو شتمًا أو غيبة أو نميمة؛ فالواجب أن يطلب من صاحب الحق مسامحته إلا إذا كان طلب المسامحة منه يؤدي إلى نفرة وعداوة بينهما فالمطلوب منه أن يدعو له بظهر الغيب ويذكره بخير في المجالس التي ذكره فيها بشر حتى يغلب على ظنه أنه رد حقه ووفَّاه بقدر ما نال منه.

٧ - أن تقع التوبة في وقتها المشروع وهو قبل أحد أمرين:

أ - الغرغرة؛ لقوله ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»

(الترمذي رقم ٣٥٣٧ وقال: حسن غريب وحسنه الألباني)

والمراد بالغرغرة: بلوغ الروح الحلقوم ووصول العبد في النزع مرحلة يوقن فيها بحضور الموت دون شك كفرعون الذي قال حين أدركه الغرق: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠]

فلم يقبل الله توبته قال ﷻ: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس: ٩١-٩٢] .

ب - طلوع الشمس من مغربها؛ لقوله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»

(مسلم رقم ٢٧٠٣)

وقوله ﷺ: «للجنة ثمانية أبواب: سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»

(الطبراني في الكبير رقم ١٠٤٧٨ وذكر المنذري في الترغيب والترهيب: [٤ / ٨٩] بأن إسناده جيد)

*** أساليب الشيطان في إبعاد الإنسان عن التوبة:**

١ - التزيين: بحيث يزين الشيطان للعبد المعاصي ويحببها له ويجعله يميل إليها وينفره من الطاعة ويظهر له صعوبتها والمشقة في فعلها.

٢ - التلبيس: بحيث يلبس الشيطان على العبد ويخدعه في كون الحرام حلالًا والمنكر معروفًا والباطل حقًّاحتى تأنس نفسه إلى فعل ما لا يرضي الله تعالى ويزول ما في نفسه من تحرج من إتيان المعصية ويصير اقترافه لها أمرًا معتادًا لا غضاضة ولا حرج في نفسه منه.

٣ - التسويف: حين لا يجدي تزيين الشيطان وتلبيسه على العبد؛ يقود الشيطان العبد إلى التسويف وتأخير التوبة فيقول له حين يراه مصرًّا على التوبة: لا بأس أن تتوب ولكن لماذا العجلة وأنت في مرحلة الشباب؟ لماذا تتوب؟ حتى تكمل الدراسة فإذا أكمل الدراسة قال له: حتى تجد عملًا فإذا

وجد قال: حتى تتزوج فإذا تزوج قال له: حتى تؤمّن المستقبل وهكذا يتدرج معه في التسويف حتى يضعف إقباله على التوبة أو حتى يفاجئه الموت قبلها وعلاج التسويف يكون بتذكر الموت والبلى وأن الصغير قد يموت قبل الكبير والصحيح قبل المريض قال ﷺ حاضًّا على تذكره: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت»

(الترمذي رقم ٢٣٠٧ وقال: حسن صحيح ووافقه الألباني)

وقد ذم الله سبحانه من اغتر بالمغفرة فتمادى في المعصية فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩] .

٤ - تهوين المعصية: حين يحرص العبد على التوبة مستعظمًا ذنبه وما اقترفه يأتيه الشيطان ويقول له: ماذا فعلت حتى تتوب؟ أنت من خيار الناس والتوبة يحتاجها أصحاب المعاصى الكثيرة الكبيرة فأنت لست منهم فلا تشغل نفسك بذلك وحتى لو تضاعفت ذنوبك فهي صغيرة قليلة بالنسبة لغيرك والله غفور رحيم؛ لا يؤاخذ الناس بمثل ذلك قال ابن مسعود ﷺ: "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه قال به هكذا فطار"

(البخاري رقم ٦٣٠٨)

٥ - تصعيب الاستمرار على الطاعة بعد التوبة: التوبة تحتاج إلى استقامة على الطاعة والاستقامة شاقة على النفس وتجلب عداوة أصدقاء

السوء فيأتيه الشيطان ويقول له: لماذا تتعب وتحمل نفسك مشقة الطاعة وعداوة من حولك من المنحرفين القريبين والبعيدين؟

٦ - التيئيس: يسرف بعض العباد في اقتراف المعاصي ويذنبون فيطمعون في التوبة وحين يقدمون عليها يستعظمون ذنوبهم وهي عظيمة فيغلب جانب الخوف على جانب الرجاء فيدخل الشيطان عليهم من هذا السبيل ويقذف في نفوسهم أن الله ﷻ لا يقبل توبتهم لأن ذنوبهم عظيمة وكثيرة؛ لذا يصاب الإنسان باليأس والقنوط من رحمة الله وهذا اليأس والقنوط ذنب آخر يضاف إلى الذنوب الأخرى التي تحتاج إلى توبة منها وعلاجه بتذكر سعة رحمة الله وعظيم مغفرته قال الله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣]

وقال ﷺ: «قال الله تبارك وتعالى: يابن آدم: إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي يابن آدم: لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي يابن آدم: إنك لو أتيتني بقراب الأرض [ملؤها أو ما يقارب ملأها] خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»

(الترمذي رقم ٣٥٤٠ وقال: حسن غريب وصححه الألباني)

وجاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ "وهي الغامدية" فقالت: "يا رسول الله! إني قد زنيت فطهرني" فردها فلما كان الغد قالت: "يا رسول الله! لم تردني؟ لعلك أن تردني كما رددت ماعزًا! فو الله إني لحبلى!" قال: «إما لا فاذهبي حتى تلدي» فلما ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت: "هذا قد ولدته" قال: «اذهبي

فأرضعيه حتى تفطميه» فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت: "هذا يا نبي الله! قد فطمته وقد أكل الطعام" فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتَنَضَّح الدم على وجه خالد فسبها فسمع النبي ﷺ سبَّه إياها فقال: «مهلًا! فو الذي نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفر له»

(مسلم رقم ١٦٩٥)

ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت، وفي رواية أخرى: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى»

(مسلم رقم ١٦٩٦)

٧ - الاغترار بكثرة العاصين: بمشاركتهم في المعصية ثم العقوبة والظن بأن ذلك ينفع وقد نفى الله ذلك فقال:

﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

[الزخرف: ٣٩]

*** علامات صحة التوبة:**

هناك علامات كثيرة لصحة التوبة من أبرزها:

١ - أن يكون العبد بعد التوبة خيرًا منه قبلها بحيث يكثر من عمل الصالحات ومصاحبة أهل العلم والخير والصلاح ويحرص جدا على ترك المعاصى والسيئات والابتعاد عن أهل الزيغ والانحراف.

٢ - ألا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه:

﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

[فصلت: ٣٠]

٣ - عظم ندمه وتحسر قلبه على ما فَرَط منه وخوفه من سوء عاقبته؛ لأن من لم يتحسر قلبه ويندم على ما فرط في الدنيا تحسر في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين فلا بد من تقطُّع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

*** بواعث التوبة:**

هناك دوافع كثيرة تساعد العبد على الإسراع في التوبة والتعجيل بها ومن ذلك:

١ - **عموم الأمر بالتوبة والحث على تعجيلها:** ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

[النور: ٣١].

وقوله عز وجل:

﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٨٢]

وقال ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»

(أحمد رقم١٩٦١٩ وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين)

٢ - معرفة الإنسان لعلاقته بالزمن:

أ - الزمن هو الحياة:

قال الحسن البصري: "يابن آدم: إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك وإنما أنت بين راحلتين تنقلانك ينقلك الليل إلى النهار وينقلك النهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة"

(مختصر منهاج القاصدين للمقدسي ٦٠)

ب - أهمية استثمار العبد للحياة ليسعد: قال ﷺ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك»

(الحاكم في مستدركه رقم ٨٦٨٨ وصححه الألباني)

ج - الزمن الماضي لا يعود ولكن يمكن محاسبة النفس على تفريطها فيه؛ بحيث يتذكر العبد أخطاءه وذنوبه في ماضيه ليورثه ذلك ذلًّا وانكسارًا بين يدي الله ﷻ فيندفع في مستقبله لاستثمار أيامه في طاعة الله ﷻ

والابتعاد عن الذنوب والمعاصي التي يقع فيها؛ حتى لا يكون مستقبله شبهًا بماضيه.

٣ - الحياء من الله تعالى:

باستشعار نعمه وعظيم فضله وجزيل عطاياه ثم مقارنتها بتقصير العبد وتفريطه في حق الله تبارك وتعالى وهذه المعاني لما اجتمعت في دعاء استحق أن يسمى (سيد الاستغفار) وهو أن يقول: "اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"
(البخاري رقم ٣٦٠٦)

٤ - الموت والمستقبل:

يمكن للعبد أن ينوي استثمار مستقبله فيما يرضي الله ﷻ لكن تلك الإمكانية تبقى أمرًا يمكن تحققه ويمكن عدم تحققه؛ لاعتبارات كثيرة أهمها: إمكانية مفاجأة الموت للعبد في أي لحظة؛ إذ قد يصبح ولا يمسي ويمسي ولا يصبح وحين يدرك العبد ذلك فإن ذلك يحثه على المسارعة إلى تنفيذ ما عزم عليه من توبة وتصحيح لواقع حياته وفي هذا المعنى يقول الصحابى الجليل عبد الله بن عمر ﷺ: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك"
(البخاري رقم ٦٤١٦)

٥ - التأسي برسول الله ﷺ: غفر لرسول الله ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومع هذا فقد كان ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة»

(مسلم رقم ٢٧٠٢)

ويقول: «والله! إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»

(البخاري رقم ٦٣٠٧)

ويقول ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»

(مسلم رقم ٢٧٠٢)

وللعبد في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة قال الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾

[الأحزاب: ٢١]

سبحانك ربي ما أعظمك!

سبحانك ربي ما أكرمك! نعصاك في الخفاء فتسترنا، نذنب فترزقنا.

ينكرون وجودك وتطعمهم، يعبدون غيرك وتسقيهم وتشفيهم.

وإذا رجعنا إليك تائبين راجين توبتك قبلتنا، وإن استغفرنا غفرت لنا.

وإن أتيناك طائعين لا تردنا خائبين؛ فسبحانك ربي سبحانك سبحانك ما أعظم شانك!

أيها المسلم العاصي، عد إلى ربك وأقبل إليه باكيا على معصيتك في حق ربك لا تبكِ على ماضٍ لن يعود وابك على معصية في الماضي بالدمع تزول.

أيها العابدون غير الله سبحانه وتعالى، وأنتم أيها المنكرون وجود الله سبحانه وتعالى، عودوا إلى الله وعودوا إلى رشدكم، رشدكم أن تحكموا عقولكم لا تتركوها تسلب منكم ولا تنساقوا وراء تحريفات أجدادكم وآبائكم في الأديان السماوية بدون تفكير معصوبي الأعين لسذاجة عقولكم بل فكروا وتأملو في آيات الله في الكون قبل فوات الأوان

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

[الشعراء: ٨٨-٨٩]

وقبل أن يأتي هذا اليوم

﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾ ﴾ [النبأ: ٤٠]

لا تجعلوا الدنيا كل همكم ولا تجعلوها تشغلكم عن الحياة الحقيقية في الدار الآخرة، أفيقوا قبل أن تقولوا

﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ ﴾

[الحاقة: ٢٧-٢٩]

فإن من واقع الحياة أننا جئنا إلى الدنيا كى نتصارع فإننا نتصارع في جمع المال إما من حلال أو من حرام نتصارع في الحصول على أعلى الشهادات نتصارع في اكتساب الألقاب نتصارع من أجل كرسي وشهرة إلى أن وصلنا إلى الصراع مع النفس ونسينا المهمة التي من أجلها خلقنا

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]

وفي النهاية افعل ما تشاء فغدًا اللقاء.

لقد كثرت الذنوب على أعناقنا فلم تعد تتحمل، ألم يأن بعد وقت الرجوع إلى الله؟

هذا اجتهاد مني فإن كان صوابا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان والله بريء منه ورسوله والله أعلى وأعلم.

سامى سلام القراش

❊ ❊ ❊